محمود تيمور

إحسان لله...

وقصص أخرى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٦٢٧٧٣
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشناوري بالحلمية الجديدة

يوليو ١٩٨٣

«محمد أفندي صلِّ على النبي»

١

ـــ صَلِّ على النبي ! .

ـــ اللهم صل عليه ! ...

ـــ لقد نويتُ أن أطلق المرأة ...

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله ! ...

ـــ قلتُ لكَ صلِّ على النبي .

ـــ ألفُ صلاة عليه يا أخي .

ـــ لقد استخرتُ الله في تطليق المرأة .

ـــ هذا خراب بيوت .

ـــ خراب بيوت أو عمران بيوت ... هـــذا ما اعتزمتُه والسلام !

ـــ أنسيت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أبغضُ الحلال إلى الله الطلاقُ » ؟

ـــ أعرفُ ذلك ، ولكنْ لا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى قال :

« لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسعها » ؟

دار هذا الحوار بين « محمد أفندى » والمأذون الشرعىّ فى مكتبه : إذ تقدمَ عليه « محمد أفندى » ؛ ليتفقَ معه على إجراء الطلاق

وجعل المأذون الشرعىّ يسوّى طوايا عمامته ، مطيلا فى تسويتها وهو يتنحنح ، معدّاً حنجرته لإلقاء خطبته المتيدة ، يحاول بها إصلاح ذات البين ، وإبراء نفسه من تبعة هذا المكروه قبل أن يغمس قلمه فى الدواة ، شروعاً فى تدوين وثيقة الطلاق ، وذلك تنفيذاً للتعليمات الرسمية المعهودة .

وما عتمَ المأذون الشرعىّ أن انبجس لسانه ، يشقشق بالجمل والعبارات ، محشوّة بالنصح للزوج أن يكفّ عن الطلاق ، وأن يؤثر الحسنى ، وأن يمسك زوجته بمعروف .

وكان يتلو هذه الخطبة عن ظهر قلبه ؛ كما ينشد التلميذ قصيدة من المحفوظات .

فلما بلغ الغاية من خطبته ، أحدّ النظر فى وجه زائره ، كأنه يقول :

هل بعد هذا مقال لقائل ؟

ولكنّ « محمد أفندى » رفعَ طربوشه عن رأسه فى ملالة

وتشجر » فتبدّى رأسه أجرد ما حلا ، إلا من شُعيرات مبعثرة كأنها أعشاب متصوّحة في صحراء مقفرة . وطفق يمسح بمنديله المخطط الكبير جوانبَ وجهه ، وهو ذلك الوجهُ السمينُ ذو العينين المتورّمتين ، والشفتين الغليظتين ، والأنف العريض الذي يطغى بضخامته على خديه ...

ثم رفع صوته في حشرجة يقول :

صل على النبي يا شيخ ...

ــ اللهمّ صل عليه .

ــ لقد اعتزمتُ تطليقَ المرأة والسلام ...

فأشرعَ المأذون الشرعيّ عينيه إلى السماء ، كأنما يُشهدُها على أنه أدّى ما يجب ، وأن ذمته بَراءٌ من ذلك الطلاق البغيض ...

وما أسرعَ أن دُوّنت الوثيقة الرسمية ، فدسها « محمد أفندي » في جيبه ، ونهض بجرْمه المتكتل ، وألواحه العراض ، ينقّل خطاه كأنه بغل أثقلته الأحمال ، ومضى يترفع برأسه ، ويتطاول بقامته ، على الرغم من أنه ذَرّفَ على الخامسة والستين ، وهو يفتل شاربه الغزيرَ في زَهو المنتصر الغلاب ، يحس بين جنبيه سوْرة الفتوّة .

رجل لا يجد نفسه فتياً ، وهو بحمد الله لا يشكو علة ، ولا يعرف فراش المرض كيف يكون ، وهذه جوارحه وأوصاله مسلّمة لم يتخونها الوهن ، وتلك أسنانه بيت القصيد في ملحمة جثمانه لم تسقط منها سن ، ولم يتثلم لها حد ، وإنه ليتعهدها بمختلف ألوان العناية من تنظيف وتسويك ، إذ يعلم حق العلم أنها مطيته الدّءوب إلى إصابة متعته الكبرى في الحياة : الطعام !

عجِل « محمد أفندى » إلى داره ، وهو يفكر في مباغتة الزوجة بما صنع عند المأذون الشرعيّ ، فيطعن كبرياءها ، ويشفي غليله منها .

يا لله !...

شدّ ما أوقعت به الأذى : وأذاقته ضروب الهوان ...

شدّ ما سلبته ماله بمختلف الأحابيل الشيطانية التي يحيا بخبثها أدهى الناس ...

٢

ما إن حلّ « محمد افندى » بالدار ، وطوّف بها ، حتى تبين أنها قاع صفصف ، ليس بها من متاع ولا أنيس ...

فتلفتَ يمنة و يسرة ، وانبعث ينادى أهلَ الدار : ليعلم سرَّ هذا الخواء الذى دهاها ، فلم يلبِّ نداءه إلا راجعُ الصدى ، يصدع له بالحقيقة المرة !...

ولمع فى رأس « محمد أفندى » خاطر اهتزّ له ، فهرع من فوره إلى كنّ الأرانب ، وجدّ فى البحث والتفتيش ، فلم يجدْ إلا نثيراً من فتات وعشب .

فاربدّت معالم وجهه ، وتمعشر بين ضلوعه الغيظ والتحسر .

لقد أتت الزوجة على ما فى الدار ، فأعملتْ فيها يد النهب والاستلاب . وإن « محمد أفندى » ليغفر لتلك المرأة كل ما اقترفتْ لو أنها أبقتْ له ذخيرته المفضلة من الأرانب ...

هى تعلم أنها باستيلائها على تلك الذخيرة ، تصوّب إلى قلب « محمد أفندى » سهماً مريشاً ، وتصيبه فى مقتل .

إن الأرانب طعامه المفضل ، وطالما اقتنى منها السمان المكتنزة باللحم والشحم ، وتفنن فى تزويدها بالأغذية ، وقضى أطول وقته فى العناية بأمرها ويتعهدها : لكى يتوافر له من تلك الأرانب ما تتطلبه له شفاهه من طعام هنيّ .

جعل « محمد أفندى » يخطو فى الردهة ذهوباً وجيئة بقدميه الثقيلتين ، يضرب بهما الأرض ضربات يرداد المكانُ بأصدائها

من رهبة واستيحاش ...

وأنحى الرجل على شاربه يفتله ؛ كأنما يقتلع جذوره ، ثم ألقى بجسمه على صُفة بنيت فى أحد أركان البهو ، وأطلق العنان لفكره ، يحلق حيث شاء ...

لا بأس ! ...

هذا آخر ما يلقاه من عنت الأقدار ...

إنه ليسدل الستار عليه ليستأنف حياة جديدة لا عنت فيها ولا رهق ...

لَيؤَثثَنّ الدارَ ، ولَيشترينْ طائفة من الأرانب الجسام...

لن يستعصى عليه أن يجدد عيشه،ويهيء لنفسه المتعة والرفاهة...

ليصيرَنّ أمرُه إلى خير ، مادامت هذه المرأة قد أخلت له وجهَ الحياة !

وبعد قليل جعل « محمد أفندى » يعتصر جبينه ...

إنه يفكر فى الثأر ممن أوقعتْ بداره تلك الخسارة النكراء...

لينتقمنّ لنفسه ، ولأثاث بيته ، ولأرانبه !

لن يؤدى لها مؤخر الصَّدَاق ، ولا نفقة العدّة ...

ولكنْ أىّ موقف يقفه من صِبيته؟ ... صِبْيَتِه الثلاثة...

لقد اصطحبتهم فى مُنْتقلها من الدار ، فلتتكفل بهم ، وحسبها

ما نالته من سوالف خيره ..

كيف ينفق ماله على هؤلاء الصبية الخبثاء ؟ ...

أينسى كيف كانوا يكيدون له ، ويمكرُون به ، وينصاعون لأمهم دونه ، ويصبون عليه غارة شعواء ؟ ...

القرش الواحد أعز عليها وعلى بنيها من نجوم السماء !

استجمعَ الرجلُ يدبر حسابه ، ويراجع ما له وما عليه ، وأخذ يتداول الأرقام جمعاً وطرحاً وقسمة .. ماذا يكفى لتأثيث البيت، ولتعميره بالأرانب ، ولبناء كيانه من جديد ؟

وانتهى به التقدير والتدبير إلى طمأنينة وسكينة ، فثروته وإن نالها كثير من التحيّف ما برحت كافية وافية . فى مستطاعه بها أن يحيا وحده حياة رفاهية وتنعّمٍ .

أما الزواجُ فقد قرر ألا يُخطره بباله يوماً من الأيام...

كفاه ما لحقه من ويلات الزواج ...

لقد آن له أن يوصدَ ذلك الباب الذى جرّ عليه شكولا من المتاعب ، وجرّعه ألواناً من العذاب ! ...

وغادر « محمد أفندي » داره ، وقد سرى في نفسه هـــدوء وارتياح ، وشرع في طريقة يرسم بها منهاج حياته الجديدة ولكن مخايل من حياته الماضية كانت تحومُ في مخيلته بين الفينه والفينة .

لقد مضى ما مضى من عمره ، تطحنه رحا الحياة الزوجية ، حيث لا قرار ولا مهادنة .

كان من قبلُ موظفاً في إحدى مصالح الحكومة ، يرى نفسه مهيب الجانب ، ويسري إلى وهمه أنه مسموع الكلمة ، ويقع في فهمه أن إليه تسنَد جلائل الأعمال .

ولكنه على الرغم من ذلك أقصته الوظيفة إثر تحقيق ومحاكمة ، فأحيل إلى المعاش ، بعد أن نالتْ منه الألسن، وشاع عنه سوء المقالة.

وإنه كلما خطرت بباله ذكرى تلك القضية المشؤومة ، ثارت نفسه ، ويصبّ جام النقمة واللعنة على أولئك الذين دبروا له مؤامرة لحمتها الحقد وسداها الانتقام ، أولئك الذين يخيل إليه أنهم قد ضاقوا بهيبته وخشيته ، فاتخذوا لإقصائه وسائل وضيعة دون تورع ولا حياء ، وحاكوا له حيلا خفيت عنه ، وجازت عليه ، فأوقعته في المحظور ...

أخـذ «محمد أفندي» سمته إلى قهوة «المعلم شحاته» ليبدأ بتدخين الجوزة. وكان صاحب القهوة قد واعده منذ يومين أن يهيئ له نوعاً ممتازاً من الطباق ...

ولكن ليس يجمل أن يتلقى أنفاس الجوزة ببطن يصفر فيه الجوع. فليبدأ بطلب صحفة مشحونة بالشواء الرشراش يقطر دسماً، وليتبعه أكواباً من الشاي العطر يمزج رشفاته منه بأنفاس الجوزة، في جلسة رخية يتعوض بها من ذلك اليوم العاصف الأنكد ...

وجدّ الرجل في السير، متدفق الخطا، منفسح الساقين، وقد سطع على محياه الطلاقة والبشر. ولم لا وهذه ساعة من فرائد ساعاته التي يشعر فيها بنشوة الفوز والانتصار؟ ..

إنه في هذه الساعة قد خلص من وطأة الزوجة التاعسة، كما خلص قبلا من زوجات أربع، بنى بهنّ، وأنجب منهن، ولكن مصايرهنّ كانت تنتهي تباعاً إلى الطلاق ...

وأيّ ذنب هو جانيه؟

النساء سواء، الأولى كالثانية، وكلتاهما تشبه الأخريات. عاشر كلا منهنّ أعواماً طالت أو قصرت، وخرج من عشرتهن جميعاً بصفقة المغبون. ليس لكل منهنّ همّ إلا اجترار المغانم،

وابتزاز المطالب. ليس لهن دستور إلا السيطرة والتآمر والعجرفة...

ما كان أقسى تكاليف تلك الزوجات عليه !...

حتى طلاقهن كان يجشمه أفدح المشاق...

ألم يكابد هم الدَّيْن والرهن والبيع، ليواجه القضايا والأحكام، فيؤدِّيَ ما وجب من مؤخر الصَّدَاق، وما تقرَّر من ألوان النفقات لهذه الزوجات، ولذلك الجحفل اللجب من أطفاله البنين والبنات ؟

لقد كان يتحمل فى جلد وصبر تلك الهموم كل مرة، أىْ عند كل تطليق... منتظراً من وراء هذه التصفيات راحة البال وإزاحة الأعباء عن كتفيه، فيهنأ بالحرية والخلاص...

ما كان أغناهُ عن الزواج، ولكنه يعجب من أمره، كيف كان فى كل مرة وهو يواثق نفسه على حياة العزُوبة، يجد خطاه قد تورطت فى الطريق إلى زوجية جديدة ؟

أما اليوم فلا عوْد لذلك الماضى الكريه...

لنْ يلْدَغ من ذلك الجحر مرة أخرى...

فيما أصاب من المتع مَقنَعٌ له، وفيما لقى من الإرهاق رادع أىُّ رادع !

وتصرمت الأيام تستنفد جهد « محمد أفندى » فى تصفية حساب تلك الزوجية الأخيرة ...

وعلى الرغم مما عانى من المراوغة والتحايل خلاصاً من باهظ النفقات ، لاحقته المحاكم تفرض عليه المغارم ، حتى ألفى نفسه يوماً لا يملك أثارة من عقار فى « القاهرة » ... لقد نفدت ثروته ، إلا داراً متواضعة فى قرية هى مسقط رأسه ، وأشتاتاً من أرض تزرع واحر بتاه ! ...

أتقضى زوجياته الخمس هذا القضاء المبرم على ما كان يملكه فى « القاهرة » ، مما يوفر له اليسار الرغيد ؟ ...

ونكّس الرجل رأسه مهموماً ، يجترّ آلامه ، ويقدح فكره ...

ووثبت فى خاطره فكرة ما عتم أن هش لها ، وفرح بها ...

لم لا يستأنف حياة جديدة فى الريف ، يعمُر داره ، ويتعهد أرضه ، ويستنبت أطيب الثمر ، ويحيا فى خفض ودعة ؟ ...

ثمة خير كثير ، وإنفاق قليل ...

ثمة مَراح عريض ترتع فيه أرانبه المحببة ، فينعم منها بالسمين المكتنز ...

ولكن عرضت له مشكلة لم يتبين لحلها وجهاً ...

أنى له أن يحصل على الطباق الممتاز الذى يعده له «المعلم شيحة» فى الجوزة ؟ ...

أتُراه قادراً على أن يسلو أنفاس تلك الجوزة التى يصاحبها ويماسيها لا يملها ولا تمله ؟ ..

وسرعان ماضرب جبهته بيده ... أمنَ العسير على «المعلم شيحة» أن يوافيه فى الحين بعد الحين بمؤنته من الطباق ؟ ...

لله الحمــــد ! ...

كل شىء قد تمهد ، سوف يعيش سلطان زمانه فى منجاة من الضنك والأذى . ولم لايطمع فى حياة رخبة ناعمة ، وإن له لإرادة صُلبة تَصْدَع المشكلات ، وتأتى بالمعجزات ؟ ... إرادة لا يقف دونها شىء ، ولكنها تقف سداً منيعاً ترد عنه أبداً ويلات الزواج ! ...

٥

شدّ «محمد أفندى» رَحله إلى قريته «كفر عقيق» ... فقد مها مع الليل ، فواجهته العتمة والصمت ..

وقف يتطلع حوله ، فوجد كل شىء كأنما يتجهم له ، فأحس

من قبور موحشة تباغته ، فتدفع بجرمه الضخم ، متجها نحو داره ، هرباً من تلك الجهامة والركود ... داره التي انقطع عن زيارتها منذ أعوام طوال ، فكاد يضل طريقه إليها . .

وما إن بلغها حتى استقبلته بمثل ذلك العبوس الذى استقبلته به القرية : بناء متطامن متضائل ، يختنق بين جاراته الدُّور ؛ كأنما هو أنقاض يعيث فيها الخراب . .

ووقف فى صحن الدار ، يتأمل فيما حوله . وقد زلزلت كيانه رعشة واضطراب . .

أمكتوب عليه أن يقضىَ بين هـــذه القبور بقية أيامه فى الحياة ؟

وراح يوازن بين ما يشهد الساعة من كآبة وخمود ، وبين مجالى حياته فى « القاهرة » .. كيف كان يعيش فى مسكنه الطيب ؟ وكيف كان يجد الإيناس فى قهوة « المعلم شيحة » ؟ وكيف كان ينعم هناك بالماء المثلَّج والجوزة الضاحكة والوجوه المستبشرة والمذياع المسلى والباعة يهتفون بسلعهم فى غـدُوٍّ ورواح ؟

أين تلك الحياة الزاخرة بألوانها وأضوائها من هذا الظلام الدامس بين الرموس والأطلال ؟

وأخذ يتنقل فى الردهة الخاوية ، فكلما خطا خطوة علقت

بوجهه أقذاء . فالتمس الخلاص إلى مُستشرَف يطالع منه صفحة السماء . فتهادت إليه أنسام رفيقة معطرة ، وأخذت عينه قوس الهلال وهو يتراءى فى عُرض الأفق إيذانا بمطلع الشهر الجديد . فلبث الرجل وقتا يتوسم الهلال ، ويستقبل ملاطفات النسيم . فاطمأنت نفسه بعض الطمأنينة ، وحلق بفكره فى رحاب من الآمال والرّغاب . وراح يسائل نفسه :

فيم الضّجر ؟ كل صعب يهون ... أما الدار ففى المكنة أن يقوم على أنقاضها مَغنًى أنيق تتوافر له معدات الراحة . وأما القرية فإنها فى حاجة إلى إحياء وتجديد . وإنه بهما لزعيم . ههنا مجال لآرائه العصرية يبثها ، ونظراته الثاقبة يُشعها ، وهمته الماضية يبذُلها . فليشنها غارة شعواء على الركود والضّعة ، ولينتشل القريَة عما هى فيه ، حتى تصبح جنة آهلة عامرة . موفورة الحظ من أسباب المتعة والإيناس .

وتعاوره التثاوب . وسرىَ فى أوصاله الخمول . وإذا هو يتهالك على أقرب كُومة من مكانه ، فاسترخى يسعف جسمانه ببعض الراحة ...

ودارت عجلة الأيام . وما برح « محمد أفندى » يعيش فى ذلك الوَكر الموحش ، كما يعيش جيرانه من أهل القرية فى أوكارهم المتداعية وكلما خطر بباله : ماذا صنع بمشروعاته فى التجديد والتعمير ؟ اربدّ وجهه من حنق ، وهو يهجس :

العجلة من الشيطان . والعاقل من حزَم أمره قبل المضىّ فيما يريد . وفى الأناة منجاة من مزالق التسرع ، ولكل شىء إبّان ، ومادامت الإرادةُ الشّابة قائمة والعزمُ موفورَ الوقود فلا يأس من الإصلاح !

ولأمر ما برزتْ عبقرية « محمد أفندى » فى التجديد ، واشتعل نشاطه فى التعمير ، ولكنه خصّ بتلك العبقرية وذلك النشاط ركناً واحداً من أركان الدار . ومرفقاً خاصاً من مرافقه ... ذلك هو كنّ الأرانب ...

لقد استبدّ هذا الكِن بيقظته ورعايته ، فأشرف على بنائه ، واجتهد فى تزويده بالأدوات والمهمات ، حتى أصبح مرعى طيباً لجيش من الأرانب على اختلاف الأنواع .

واتفق « لمحمد أفندى » أن يعثر بعد جهد جهيد على شيخ

طحنته السنون ، كان يتهن الطهو كما يزعم فى دور السراة والكبراء وقد نسى مهنتـــه من فرط التعطل ، وبعد العهد ، وضعضعة الكبر...

فعُنى « محمد أفندى » بأن يستخرج هذا الرجل ، ويميط عنه غبار الزمن ، ويَجْلُوه على عرش المطبخ كما كان فى سالف عهده العهيد . .

وحق « لمحمد أفندى » أن يفخر ببنائه حظيرة عصرية للأرانب... واستخراجه لذلك الطاهى التليد .. وكيف لا وقد راع القرية بمظهر من مظاهر المدنية والتحضر لم يكن لها بمثله عهد ؟

وكان « محمد أفندى » يبذل أطول وقتـــه فى صحبة ذلك الطاهى المتهدم ، يرقب الأرانب وهى فى القدور تتقلب فى سمنها مزعفرة يتشيع منها القُتار ، على حين يتحلب فمه من تشوف وتعجل . . .

وكثيراً ما احتدم الشجار بين « محمد أفندى » وطاهيه فى شأن ألوان الطعام ، وما يجب أن يتوافر لها من دقة وتجويد وإتقان . فكان يحاول أن يفرض رأيه على الطاهى مسفهاً خبرته ، ناعياً عليه تقصيره . ولكن زمجرة الطاهى وتهديده بترك الخدمة كان يحدو « محمد أفندى » على أن يغادر المطهى فى تسلل ، قاصداً

مستشرف الدار الضيق ، يلتمس فيها الهواء لوجهه المحتقن ، وأنفاسه المحتبسة .

٧

وكان يختلف إلى الدار شيخ من حفظة القرآن ، يُدعى « الشيخ عَزبان » يقرأ الراتب اليومىّ من آى الذكر الحكيم ، وكان « محمد افندى » يخصه فى الفينة بعد الفينة بالجلوس إليه تبرّكا بقراءته ولكنه لا يلبث أن يبادره سبات عميق ، فتنطلق من خياشيمه حشرجة غطيط تبارى صوت القارىء فى ترتيله .

وكان « الشيخ عزبان » لا يفتأ يرطب لسانه بأسنى المدائح لسيد الدار ، متغنيا بأخلاقه وشمائله : فيستبقيه « محمد أفندى » وقتا ليقص عليه طرَفا من أعماله المجيدة فى فترة اشتغاله بالوظيفة ، ويسبّ الدهر الذى جازاه أقبح الجزاء . .

ولم يكن ينسى أن يتطرّق بالحديث دائما إلى زوجاته ، وما أفاءه من عطف عليهنّ وبرّ بأطفاله منهن ، على الرغم مما أسلفن إليه من مَساءة وإيذاء . ومهما يكن من أمرهن فإنه قرير العين ، مطمئن الضمير بما صنع ، ضاربًا صَفحًا عما لقى . وحسبه أنه أدى واجبه الإنسانى على خير ما يؤديه ذو

مروءة وإحسان ...

كان « محمد أفندى » يسترسل فى الإشادة بماضيه ، والتمدّح بأمجاده . فيستمع إليه الشيخ مبديا تصديقه وإعجابه ؛ وهو بشخصه الضئيل متكمش فى عباءته المهلهلة ، يختلس النظرَ إلى جليسه بمقلتين كأنما انتُزعتا من عينَىْ ثعلب .

ولم يكن الشيخ يخرج من مثل تلك الجلسة خاوى الوفاض ، وإنما كان يُجزَى بما تيسر من ضلع أرنب ، وشار من رزّ ، فى لفائفَ من خبز رَحراح ...

٧

طابت الحياة على هذا النحو رَدَحا من الزمن ، وأصبحت مألوفة « لمحمد أفندى » لا يشعر لها بملالة ولا ضجر . فقنع من حياة الترف والإيناس فى الحضر ، بما وعته مخيلته من ذكريات يعرض صحائفها بين آن وآن .

ونجمت فى دنيا « محمد أفندى » حادثة لم تكن له على بال ؛ إذ أصيب طاهيه بوَعْكة ألزمته مرقده ، فضاق « محمد أفندى » بأمره ، وأسقِط فى يده ، وقضى يومه حيران أسفاً ، يدور فى بيته ؛ كأنما يتفقد شيئاً أضاعه ، دون أن يعثر له على أثر .

وكان فى مداره بالبيت يدنو من كنّ الأرانب ، يلقى عليها من الطاق نظرات مسترقة ، فيجدها راتعة بين أضغاث البرسيم ، تلتمع أعينها فى بهجة ومراح ، وتتواثب سمينة متملئة من شبع ورىّ ، فيقف « محمد أفندى » مهموم الخاطر مغيظ النفس ، وينصرف عنهـا متلهباً من حقد وحنق .

ولم يجد « محمد أفندى » فى ذلك اليوم بدّاً من أن يعدّ لنفسه مطعمه على شرّ وجه .

ولما حضر القارىء لم يجد بقية من طعام يصيبها ، بل إنه لم تسنح له فرصة يتمدح فيها بأمجاد « محمد أفندى » إذ كان ربّ الدار مهتاج الأعصاب ، جهم الحديث .

وطالت العلة بالطاهى ، فثارت ثورة « محمد أفندى » ولم يعدله صبر ، فجأر بالشكوى إلى صديقه « الشيخ عزبان » ، فطيّب الشيخ خاطره ، ووعده أن يعينه على حلّ هذه المعضلة .

وفى الغداة ، بينما كان « محمد أفندى » يترشّف القهوة ملولا متململا ، أقبـــل عليه شبح ضئيل يمشى على استحياء ، متلفعاً بالسواد ، فى بذاذة هيئة ...

وتدانى الشبح يلثم يد الرجل فى تخشع ، فسأله :

من يكون ؟

فأجاب الشبح فى صوت ضارع :

أنا بنت ابن «الشيخ عزبان» . . .

فرمقها الرجل بنظرة استجلاء ، فتبين له من خلال السواد عينان براقتان يلتمع فيهما ذلك التوهج الذى ينبعث من عينىْ الشيخ جدّ الفتاة .

فسألها :

فيم قدومك ؟

— بعث بى جدّى لأقوم بما يلزم .

فأجابها على الفور :

أتجيدين طهوَ الأرانب ؟

— أعاننى الله على مَرْضَاتك .

فبسط الرجل جانبيه ، وزوى ما بين حاجبيه ، وشمخ برأسه ، وقال :

على أية الطرق تحسنين طهوَ الأرانب ؟

— على أية طريقة تشتهى ... مُرْنى تجدنى عند أمرك ...

وكان صوتها متخاذل النبرات ، فنهض « محمد أفندى » بصدره ، وصاح بها :

ارفعى من صوتك ... مم تخافين ؟... أوحشٌ أنا تحذرينه ؟

وسما بقامته واقفاً ، وهو يقول فى لهجة الآمر :

اتبعينى إلى كنّ الأرانب ...

واندفع فى خطاه يهزّ أرض البيت هزاً ، والفتاة تقفوه حَذِرةَ المشية ، فدخل كنّ الأرانب ، واقتعد كومة عالية ، وجعل يرسُم للفتاة خططَ اصطيـــاد الفرائس : كيف تختِلها بأعواد البرسيم ؟ وكيف تقطعُ عليهـا طريقَ الرّجعة والهرَب إلى الثغرات ؟...

وكانت الأرانب قد احتفرت فى أرض الكنّ سراديب دفينة تستتر فيهـا ؛ كأنهـا مخابىء الجيوش فى ساحة الهيجاء ، وقد تعلم ذلك الحيوان بغريزته : كيف يحاذرُ ويترقب ويتحيل ؟ وكيف يقاوم ويتفلت ؟ فلم يكن اصطيادُه بالأمر اليسير ...

ولشدّ ماتعب « محمد أفندى » وتعب طاهيه فى اقتناص مايشتهى من ذلك الصيد الأبىّ العنيد ...

وبدأ « محمد أفندى » صياحه معلناً تعاليمــه ، وأخذت الفتاة تعمل فى همة ، مبتغية أن تظفر بثقة سيد الدار ، وتحوز رضاه ؛ واضطرت أن تزحزح عن جانب رأسها ذلك الخمار المهلهل فبان منها وجهٌ مسنون يميل إلى السمرة ، ذو قسِمات خلت من دمامة ...

وبينما كان « محمد أفندى » ماثلا على ربوته يأمر وينهى ، كانت الفتاة تتواثب فى خفـــة خلف الأرانب . تنفيذاً للأوامر والرغبـات .

ولم يمض مديدُ وقت حتى أفلحت الفتاة فى اقتناص زوج من الأرانب منتق يترجح سمانة وامتلاء. فحملته إلى الرجل ووجنتاها تضرّجهما نضرة النشاط ، وعيناها تلتمعان التماعة الفوز . فتناول « محمد أفندى » زوج الأرانب من يد الفتاة ، واحتمله من آذانه ، يتعرّف زنته ، ويتحسس أعطافه فى نهم واشتهاء . ثم أعاده إلى الفتاة طلقَ الأسارير ، وما ملك أن صاح :

مرحى ! مرحى ! ... لقد أحسنت الصيد والانتقاء ...

ثم ماعتمَ أن استدرك يقطب جبينه ، ويستنقذُ رزانته وإمرته ، وجأرَ فى خشونة :

إلى المطهى ...

وانطلقا معاً ، وهناك خلع « محمد أفندى » معطفه ، ثم تشمر واهتم ، واستأنف صولته فى إصدار الأوامر . ونهضت الفتاة بكل ماتتطلبه الحال من شئون ، فذبحت وسلخت وشرعت تطهو ، والرجل لا يفتر له صياح ، دون أن يشارك فى شيء .

ولما اطمأن «محمد أفندى» إلى خبرة الفتاة وحسن قيامها بالطهو ،

تزحزح عن المطهى ، دالفاً إلى مستشرَف الدار ، فما إن بلغه حتى تهالك على مقعده الفسيح يستريح .

وبينما كان في رخاوة وانطلاق خيال ، يرنّق النوم في عينيه ، إذ هب إلى خياشيمه شذًا القهوة المعطرة . واستبان له شبح الفتاة تقرب منه القدح . فاعتدل في قعدته ، وتأهب لارتشاف قهوته ، وخالس الفتاة نظرة ترفع ، ثم أشار إليها بظهر يده أن تنصرف لشأنها ، دون أن ينبس ببنت شفة .

وفرغ « محمـــد أفندى » من ارتشاف القدح ، فإذا « الشيخ عزبان » يلوح متزاحفًا في مشيته ، جمّ الحياء ، باديَ التذلل . وألقى عليه تحية بالغةَ الإجلال ، ثم اتخذ مجلسه عن كثب منه ، وشرع يتلو بعض الآى في صوت خافت ، معدًّا أوتار لهاته لتجويد وترنيم . .

وإذ هما على هذه الحال ، قدمت الفتاة تسترجع القدح ، وما لبثت أن عادت أدراجها ، رفع الشيخ بصره في محاذرة واستحياء ، ونظر إلى « محمد أفندى » قائلا وهو يفرك يديه :

لعل سيدنا البك راض . . .

فصوّب الرجل عينه إلى الشيخ ، وقال مغضّن الجبين :

عن أى شيء ؟

ففرَجَ الشيخ مابين شفتيه ، وبعثر نظراته يَمنة ويسرة ، وقال مطأطيء الرأس :

عن البُنَيَّة . . خادمتك . . .

فأشاح الرجل بوجهه فى إهمال ، وهو يقول :

لا بأس بها . . .

ثم ما عتم أن انطلق يتضاحك فى تصنع ، وهو يقول :

ما لبنيتك هذه ضئيلة ، لا تكاد تبين ، كأنها حِرْباءة ؟ . . .

فاستجاب له الشيخ يضحك كما ضحك ، واندفع يهزّ عطفيه ويفرك يديه قائلا :

أطال الله عمرك ، ولا حرمنا عطفك ورضاك . . .

٩

وأعضلتْ علةُ الطاهى الهرم، فلم تدع له طاقة باستئناف العمل فواصلت الفتاة الاضطلاعَ بخدمة الدار ، تباكرها فى ريِّق الصبح وتظل فيها إلى غيوب الشمس ، وأحس « محمد أفندى » فى داره إحساساً جديداً لم يسبق له به عهد . ذلك أنه الآمر المطاع ، والداعى المجاب . إذْ خلا المطهى من زمجرة ذيّالك الطاهى الخرِف ، وحلت محلها تلك الطاعة المطلقة ، والانقياد التام . . .

وكان يقضى الرجل شطر يومه الأول على عرشه فى المطهى بين المواقد والقدور، يتملى مرأى المطاعم، ويتشمم ما يتضوع من شذاها، ويستمتع من مذاقها بما يريد...

فإذا انتصف النهار، تجلت أمامه الصينية الرحيبة، وقد احتشدت فيها صحاف المشهيات والخضر الحرّيفة من نحو البصل والكراث وما إليه، وفى سُرّة الصينية يستقر الطبق العتيد تتشامخ فيه أركان الأرانب على حشايا الرزّ المسمون.

فينبرى «محمد أفندى» للطعام وقد تطلق محياه، وتجمع لفرائسه يناقشها الحساب. ويستصفيها ما تحتوى من زُبدة ولباب.

وربما انحرف ببصره غير عامد، فصادفه شبح الفتاة، ماثلة ترتقب إشارته. لتسارعَ إلى التلبية. فيهمهم والطعام يعترك بين شدقيه:

طهوُك يبشر بمستقبل حسن!

فتبتسم الفتاة خجولا، وتجيبه خفرة الصوت:

أدام الله علينا عزك.

وما إن يفترّ ثغر الرجل عن مطلب حتى تكون الفتاة قد أجابته إليه: فهذا كوب الماء تنحنى به عن كثب منه. وذاك طبق ظليف تقربه إليه.

وما يكاد يفرغ من طعامه .أو بالحرى: ما يكاد يفرغ الطعام.

بين يديه ، حتى يرى الفتاة قد مثلت أمامه بالطست والإبريق ، وعلى كتفيها الفوطة حاضرة . وهى فيما بين ذلك كله رائحة غادية ، تدأب فى إسعافه بما يطلب ، وفى التفطن إلى ما يهجس فى نفسه...

أما هو فلا يكون منه إلا العجيج بأوامر لا تنتهى : والصياح بطلبات ليست بذات بال ، وإنما هى رغبة التأمر والاستمتاع بالسيطرة . فلا يجد من الفتاة على أية حال إلا الطوع والإذعان .

وبعد الغداء يقبل « الشيخ عزبان » فيأمر « محمد أفندى » بجمع بقايا المائدة ؛ ليحملها الشيخ فى منديله الأحمر الفضفاض . وقبل مبارحته الدار ، يسأل « محمد أفندى » فى شأن فتاته ، ومبلغ رضاه عنها . فيجيب الرجل :

لها مستقبل إن ثابرت وصابرت ..

— تعليمات سعادتك خير مرشد لها فى الطريق ...

— إنى أعلمها قدرَ ما تفهم ...

— ثق بأن ثوابك عند الله عظيم ... إن الله لا يضيع أجر المحسنين .. هى بنت يتيمة . ونحن ليس لنا فى الدنيا غـــير عطفك ...

وفى بكرة يوم هبط الطاهى الهرم يتحامل على عكازته ، وقد نهكته العلة . وتحيّفه الهزال . فتدانى من « محمد أفندى » يحييه، فبوغت بلقائه . ولم يستطع أن يكظم استياءه، فاستقبله بوجه كالح . ولكنه لم يجد مندوحة عن رد التحية ، والسؤال عن الصحة.

واحتل الطاهى عرشه القديم بين المواقد والقدور ، وانتهت مهمة فتاة الشيخ . فلم يعد لها مجال .

وعادت الحياة فى الدار كما كانت : زمجرة الطاهى تجلجـــل ولا تهدأ ، والمطهىَ حِمىً لا يستطيع أحد أن يقترب منه إلا فى محاذرة واحتراس .

فكان « محمد أفندى » يفزع إلى مستشرَف الدار يبثه همه وضيقه . إذا استبدّت به الرغبة إلى مطالعة المطهى تسرّب إليه على أطراف أصابعه ، ونظر من خَصاص الباب يلتمس الطمأنينة على ما يجرى فى عالم المواقد والقدور من شئون .

وكرت الأيام تنعى إلى « محمد أفندى » تضاؤلَ نفوذه ، وتزايلَ هيبته ، وتناقصَ راحـــته ، إذ عاوده ما كاد ينساه من خدمته لنفسه ، وقيامه بحاجاته ... إذا عطش فلا سبيل إلى ريّه

إلا إن نهض يملأ الكوب ، وإذا أكل حتى تضلع وأثقل لم يجد مندوحة من النهوض بجثته إلى مرافق الدار يغسل يده . فأما شهوة التأمر ونزعة السيطرة فقد احتبست فى قمقمهما لا تجد السبيل إلى الانفلات .

ولم تكد تمضى أيام على قدوم الطاهى ، حتى مال «الشيخ عزبان» على «محمد أفندى» يشكو إليه ما دهاه من ألم فى الظهر ، ووجع فى المفاصل ، مما اضطره أن يتوكأ على كتف فتاته فى تنقله ..

ومن ثم كان «الشيخ عزبان» يؤم الدار مصطحبا تلك الفتاة ؛ فإذا قدم إبّان الطعام ، حاولت الفتاة أن تخدُم سيد الدار على مائدته كسابق خدمتها له ، فيحس «محمد أفندى» براحة فقدها منذ عاود الطاهى عمله

وكان ذلك الطاهى إذا لمح الفتاة فى هذه الفترة القصيرة ، تعكر عليه بخطواتها صفو استقلاله ونفوذه ، اعتلجت فى نفسه زمجرة حبيسة ، وحدجها بنظرات حداد ، واستعاذ بالله من تلك المنافسة الشعواء .

وشاعت فى أرجاء الدار سارية من الخصومة المكبوتة ، والاستنكار المكنون . وكلما طلع يوم جديد ، شعر «محمد أفندى» باشتعال رغبته فى الخلاص من هذا المأزق ، وتصفية ذلك الجو ،

والرجوع إلى حياة طمأنينة وراحة وسلام .

١١

وذات يوم لم يكد الشيخ ينصرف فى صحبة فتاته بعد الغداء ، حتى زحف الطاهى الهرِمُ إلى سيده يرْجُف غيظاً ، وإذا هو ينهى إلى « محمد أفندى » أن فتاة الشيخ قد أعملت فى المطهى يد العبث، وأنها جرؤت على أن تبدد بعض الأوانى ، وتسلب بعض الأطعمة .

واندفع الطاهى فى نكيره وسخطه ، يعلن أنه يحرّم على الفتاة مقاربة المطهى بعد اليوم ، وإلا قصم ظهرها، وقذف بها فاقدة الأنفاس .

وكانت هذه القذيفة أذاناً بانفجار البركان ، فقد نفرت أوداج « محمد أفندى » وفار الدم فى رأسه ، وصاح من فوره متهدج الصوت :

صل على النبى .

— اللهم صل عليه .

ومرت لحظة ، فأحس « محمد أفندى » ريقه يغيض . وأوصاله تُرْعد . فردد قوله :

قلت لك صل على النبى .

— ألف صلاة عليه .

ــ أنت منذ اليوم مطرود يا حضرة ...

ففوجئ الطاهي بتلك الكلمة ، وعاجلته البهتة ، وأحد بصره فى الرجل ؛ كأنما يستوضح من ملامحه كنه ما سمعت أذناه . وهمهم :

مطرود ؟ ... مطرود ؟... كيف ؟...

ــ مطرود والسلام ! ...

وتمالك الطاهى ، واستعاد ثقته بنفسه ، ورمى الرجل بنظرة نكراء ، وصاح فى لهجة رعناء :

مطرود أو غير مطرود ...هذه البنت الخسيسة وجدها المحتال لن تطأ أقدامها عتبة الدار ، بعد الآن ...

استمع « محمد أفندى » للطاهى ، وهو يرسل هذا القول ، وجعل يمعن الفكر فيه . فلم يخرج إلا بمعنى واحد ، هو أن سيد الدار رجل غيره ، وأن الزمام مُفلت من يده ، وأن أمره بطرد ذلك الطاهى الأحمق أمر مشكوك فى تنفيذه ، وإذن فالطاهى مستأنف عمله كدأبه ولن يظهر فى الدار ظل لذلك الشبح وفتاته...

وهمّ « محمد أفندى » أن يواجه سطوة الطاهى بما يقضى عليها ، فحاول أن ينهض مستجمعاً متشجعاً ، يستعين جوارحه ، ولكن سرعان ما خذلته ركبتاه المهتزتان ؛ فتهاوى على مقعده العتيد يهمهم فى تضعضع واندحار ...

وما عتم أن رأى شبح « الشيخ عزبان » مقبلا عليه . ولم يكن قد غادر الدار كما توهم الطاهى ، وإنما ارتفعت الستارة عن هذه المأساة ، وهو فى منصرفه ، فرجع منزوياً يتسمع ... ثم أقبل مبهور الأنفاس ، يتصنع الإعياء ، وألقى بجسمه عن كثب من « محمد أفندى » ، وصاح تخنقه العبرات :

لا أغلق الله لك بيتاً ... لا تقطع عيش هذا الطاهى المسكين ... إنه رب أسرة ... أما أنا والبنت فكلانا فداء لراحتك ... خيرك يعمنا دخلنا الدار أو لم ندخل ...

وشعر سيد الدار بقواه تتجدد ، وبعزمه يتشدّد ، فاستطاع أن يقول فى شبه صيحة :

لا ... لا ... إنه مطرود بلا رجعة ! ...

فما زال به الشيخ متوسلا يقول :

العفو من شيم الكرام ... أين يذهب الرجل إن تخليتَ عنه؟ ليس فى غُنية عنك ، وما فى مقدوره إنكار معروفك ... لا ينكر المعروف إلا كافرٌ جَحُود ... لقد كان قبل خدمته لك بائس الحال ، فأطعمتَه وكسوتَه ، وبدّلته بالبؤس نُعمى ... إنه مَدين لك بالحياة ... إنه ...

فضاق الطاهى بذلك ذرعا ، وقاطع الشيخ ، وهو يرميه

بشواظ عينيه :

حسبك يا شيخ حسبك ... ما هذا المرّق ؟

فاستدار نحوه « الشيخ عزّبان » قائلا :

أتنكر أن سيدنا البك جعلك إنساناً بحق ؟

ـــ أنا إنسان منذ خلقني الله ...

ـــ إنسان أو غير إنسان ... عليك أن تقترب من سيدك ، وأن تستغفره مما فرط منك ... تقدم فقبلْ يده ورجله ...

ـ أقبل رجله ؟ ... ما هذا ؟ ...

فاشرأبّ « الشيخ عزبان » متنمراً ، وصاح ثائراً :

إنه وليّ نعمتك ... طأطئْ رأسك ، واركع أمامه واستغفر ...

ـ الركوع لله وحده ...

فصلب الشيخ قامته ، ووقف أمام الطاهى وجهاً لوجه ، وقال :

اتق الله يا رجل ، واعرف لسيدك واجبه ...

ـ من الذى يجب أن يتق الله ؟ ... أنا أو أنت ؟ ...

ـ أنا رجل لاهمّ لى إلا تقوى الله ، وعرفان جميله ، والإقرار بفضل ذوى الفضل . . .

ـ بل إنك لا همّ لك إلا الأحاديث الفارغة التى تلتمس بها التسكع فى بيوت الناس ...

ـ أمتسكع أنا أيها المخبول ؟

ـ بل إنك شيخ فاسد مملوء القلب من مكر وخداع . . .

فالتفت « الشيخ عزبان » إلى « محمد أفندى » وبدت على وجهه المسكنة والاستغاثة ،وقال فى لهجة المتباكى :

أنا فاسد ماكر خدّاع ؟ ... لابأس ... لابأس .. إنى رجل تجمعتْ فىّ كل خصال السوء ... لا بأس !

وسما بطَرْف منديله إلى عينيه يمسحهما ، وواصل حديثه مخاطباً « محمد أفندى » فى صوت متخاذل :

إنى مسامحه لوجه الله ... وأضرع إليك أن تعفو عنه ... إنه رجل مسكين ذاهب العقل ، ليس عليه فيما يقول حَرَج . . .

واقترب من « محمد أفندى » وأخذ بحاشية معطفه ، وقال :

أستحلفك بالله أن تعفو عنه ...

فصاح الطاهى محتدًّا مستنكراً لما يسمع :

وإن لم يعفُ عنى فماذا يكون ؟ ...

فانتفض « الشيخ عزبان » وأقبل على الطاهى يسدّد إليه نظرة حامية ، وصاح :

يكون أن يخرّبَ بيتك ، وتصبح فيه كالكلب الجائع ...

فامتدت يد الطاهى إلى مُخَنَّق الشيخ ، وأخذ بتلابيبه ، وهو يقول :

الكلب الجائع أنت يا وقح ...

وسرعان ما اختلط الصياح ، وتشابكت الأيدى ، وتقارعت اللكمات ، و «محمد أفندى» لا يزيد على أن يرقب المعركة محملق العينين فى ذهول وَوَجيف ... يريد الكلام فترتعش شفتاه ، ولا ينطلق له صوت . ويحاول الحركة فتختلج أوصاله ، ولا يستطيع أن يتقـــدم خطوة ...

يا لله من هذه المعركة العصيبة التى يخوضها « محمد أفندى » الآن !

إنها موقعة فاصلة يتقرر بها مصير سلطانه فى الدار ... هل ينتصر ، أو تكتب له الهزيمة ؟.. أيكون هو السيد المطاع ؟... أم تكون لهذا الطاهى المستبد سلطة الأمر والنهى ؟

وتدفق حشد من أهل القرية يستجيبون للصياح ، فاقتحموا الدار ، وما لبثوا أن فرقوا بين المتلاحمَيْن ، وأقبل رهط منهم على « محمد أفندى » يحييه فى تجلة وإكبار ، ويسأله جلية الخبر .

وكان الرجل يتفصد جبينه عرقا ، وهو جامد فى مكانه ، كأنما شدت

إليه بأمراس ... واستطاع بعد لأى أن يملك زمام وعيه ، وألفى نفسه يقول فى صوت أبَحّ :

صلوا على النبى .

فارتجت أرجاء المكان استجابة له ، وأشرعت إليه الأعين، واحتبست الأصوات استشرافاً لما يقول .

وشعر «محمد أفندى» بالعزة والإمرة ، وألفى نفسه فى مقام السيادة بين الأتباع ، فقال :

هذا الطاهى مطرود منذ اليوم ...

وأراد أن يردف هذه الجملة بأخرى ، فلم تسعفه القريحة بجديد . واضطُرّ أن يختم خطبته بقوله :

انتهى الأمر !..

١٢

وأظلّ الدار عهدٌ جديد ... عهد استقرار وطمأنينة وسلام ... المطهى مباح لرب الدار ، يقضى فيه من وقته ما اشتهى ، وأرجاء الدار طوع صوته يرجّها بما شاء من صيحات الهيمنة والتأمر . وحفيدة الشيخ تغدو وتروح مذعنة تلبّى مطالبه فى غير وَناء . والصينية تزخر بشتى ما تهفو إليه نفسه من مشهيات وخُضَر ،

يتوسطها ذلك الطبق العتيد الذى تتشامخ فيه أركان الأرانب على حشايا الرزّ المسمون ... و « الشيخ عزبان » يختلف إلى الدار يقـــرأ ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ويطيل جلسته إلى « محمد أفندى » يزف إليه المكرَّرَ من مديح الملق والزُّلفى .

وكثيراً ما يدعوه « محمد أفندى » إلى ملاعبته بالنَّرْد أو الورق، فلا تنتهى الملاعبة إلا بهزيمة الشيخ على الدوام ، وصياح رب الدار بالتهكم والسخرية ...

فإذا مال ميزان النهار ، تهيأ الشيخ لمغادرة الدار مصطحباً فتاته ، وقد تأبط صُرَّة عامرة يحاول أن يخفيها تحت عباءته ...

ويوما ضاقت معدة « محمدأفندى » بأمرها . فأعلنت العصيان، وما هى إلا أن استوطن الرجل فراشه يحاول علاج الحال؛ وَعُنى به « الشيخ عزبان » وفتاته ، فلم يألُوَا جهداً فى تمريضه وتدبير شأنه وإسعافه بالأشربة المدفئة . ولازمه الشيخ يؤنسه بالنوادر والطرف ، ومازال كذلك حتى انسدلتْ أستار الظلام ، فهم الشيخ بالانصراف ، ولكنه كان يتباطأ ويتلكأ ، وأخيراً أقبل على « محمد أفندى » يقول :

ليس بهين علىّ أن أتركك . . . سأبيت الليلة تحت قدميك ، ساهراً عليك ... أما البنت فإنها تظل فى خدمتك ، رهنَ إشارتك ..

سمع « محمد أفندي » هذه الرغبة ، فأكبر ذلك الصنيع من شيخ هرم يبذل راحته فيما يراه واجبا عليه .

وانقضت الليلة فى سلام . . .

وتوالت الأيام تسجل لزوم الشيخ وفتاته للدار لا يبرحانها ، وهما دائبان فى خدمة « محمد أفندى » متأنقان فى تأدية مراسم الولاء له ، والاعتزاز به .. فازداد ربّ الدار استشعاراً لعظمته ، وثقة بنفسه ، فكان لا يهدأ من صياح وتأمر ، ولا يشك فى أنه مُلاق سمعاً وطاعة

١٣

وعلى مرّ الأيام استطاع الشيخ وفتاته أن يظفرا من رب الدار بموفور التقدير ، فهو يطمئن إليهما فى خاصة شأنه ، ويعول عليهما فى الجليل والدقيق من أمره . . . وكان ذلك سبيلا إلى أن يحتلّ الشيخ وفتاته مخزن المئونة ، فيتخذاه محلهما المختار ..

وبدت على الفتاة مخايل النعمة ورغادة العيش . فاعتدل قوامُها وتورد وجهها ، وترنحت أعطافها من امتلاء .. فكان « محمد أفندى » يسترق النظر إليها ، باذلا جهده فى التخفّى والمساترة ، ولكن الشيخ الطيب لم يكن يعز عليه أن يتصيد تلك

النظرات المخالسة ، وأن يكتنه ما لها من غَوْر . فكان يخلو إلى حفيدته يُسرّ إليها الحديث، وكأنما هو يرسُم معها خططا ذوات بال ...

ورئيت الفتاة مَعنيّة بهندامها، حَفيّة بزينتها ، فإذا قدمت بالقهوة إلى « محمد أفندى » قاربت من خطوها ، وغضت من بصرها، وفزعت إلى خمارها تسبله على جانب وجهها، ولكن الخمار لا يلبث أن يسقط، فيبدو شعرها قد ترامت ضفائره، وعلى جبينها قد انعقد منديل مَوشِيّ الحواشي، مختلف الألوان. فأما وجنتاها فإنهما تتضرجان كأنهما قد أدركتهما صبغة الخجل والحياء ، وأما عيناها فتظهران كحيلتين ، لا تدرى أمكحولتان هما بإثمد ؟ أم هذه صِبغةُ الله ؟ ! ...

وإن الفتاة لتسارع إلى خمارها تلتقطه، وقد اختلط فى قسماتها الاضطراب بالابتسام . ويتضاحك « محمد أفندى » وهو يقول :

« يالها من فتاة ساذَجة !

وتوالت الأيام تزيد من خلوات الشيخ بحفيدته، وبين يوم ويوم تتجلى نتائج هذه الخلوات ...

وبينما كان « محمد أفندى » ذات ليلة مضجعاً على مُتكئه ، بعد عشائه ، وقد رنّق فى عينيه الوسن ، طرقت الفتاة حجرته تحمل صينية القلل ، وكانت كشأنها الجديد بادية الزينة ، متضوعة العطر . فجازت برب الدار صامتة خافضة البصر ، فثابت إليه يقظته ، وجعل يرقبها وثاب النظرات ...

ولما أقرت الفتاة الصينية فى مكانها من النافذة ، وهمت أن تعود ، عاجلها « محمد أفندى » بقوله :

اسقينى يا صبية ...

فأحضرت له القلة . يفوح منها العبق ، فأخذ يترشّف منها ، وعيناه تراوحان الصبية وتغاديانها ، وبخور القلة يمازج عطر الفتاة ويزدحم على خياشيمه ... وما كاد يناولها القلة حتى همهمت فى صوت حنون :

هنيئــا ..

وقبل أن تغادر الحجرة ، قالت له كاسرةً من طرفها :

نوم العافية يا سيدى !

فشكر لها « محمد أفندى » رقة عاطفتها . وخايل الغبطــة

تتجلى على أســـاريره.

وتقلب الرجل على متكئه، وهو يجاهد أنفاسه، ثم انسرح في آفاق شتى من الأخيلة...

ما أعظم الفرق بين صبايا الريف ونساء المدائن!... صبيّة الريف مؤدبة مهذبة، ساذجة طيّعة، طيبة القلب نقيـــة... أما الأخرى، والعياذ بالله. فقد عرفها مُجمعاً للشرور والآثام: خبث نفس، وطول لسان، وجنون خُيَلاء!...

وفي الأمسية التالية كمن «محمد أفندى» في متكئه، يترقب صينية القلل.. وما إن أقبلت الفتاة تتخطر، وعلى أعطافها يتهدل خمارها الهفهاف، حتى سارع الرجل إلى طلب شربة ماء. فلما نقع غلته ألفى نفسه يقول للفتاة:

حقا إنك بنت حلال، وإني لراض عن خدمتك...

فجثت الفتاة من فورها على يده تلثمها في خشوع. ثم طفقت تمسح من عينيها أنداء من دموع...

فنظر إليها دهشا مهتاجا يقول:

ماذا يبكيك يا صبية؟...

— أبكي من فرط ما ألقاه من عطفك يا سيدى!... لم أكن أعرف أن في الدنيا أحداً يحمل قلباً مثل قلبك الكبير... إنك

تأسِر بمعروفك النفوس ...

ـ حسبُكِ ... حسبكِ ...

ـ قسما برأس جدى إن ما أقوله هو الصدق الخالص ... ما ذاق معروفك إنسان إلا فنى فى خدمتك ... أنا وجدى ننزلك من قلبينا أكرم منزلة ... نكبرك ... نجلك .. نعزك ... نحبك ... نحبك الحب كله ! ...

ثم عقد لسانها التلعثم والارتباك ، فحنت رأسها ، وأسبلت خمارها ...

وشاعت الابتسامة على محيا الرجل ، واهتزت أوصاله ، وهمهم: إنى مصدقك ... وإن حبك أنت وجدّك ليس بخاف عنى ...

فرفعت الفتاة رأسها شَرِقة بدمعها ، وهى تقول فى حرارة واهتيـــاج :

أطال الله عمرك ، وزادك عافية وعزة ، بحق جاه النبى وآل بيته ... دعوة من القلب تتفتح لها السماء ! ...

وندّت من الفتاة تنهدة حافقة راعشة ، ثم انحنت على « محمد أفندى » تلثم حاشية جلبابه ، وانفلتت تغادر الحجرة مهرولة ؛ كأنما لا تقوى لخجلها على أن تطيل البقاء ...

ونهض « محمد أفندى » يَذْرَعُ الحجرة بطىء الخطو ، ثقيل الحركة ... إنه لم يستطع أن يظل على متكئه ... ما أحوجه إلى أن ينفّس عن نفسه ! ...

وعلا بصدره منتفخاً ، وقد استنار وجهه ...

لقد بَرِح الخفاء ...

لقد وقعت الفتاة فى شرَك هواه ...

كل حركة منها تنم عن هذه الحقيقة الصادقة : صوتها الحنون ، نظراتها الجيّاشة ، دمعها المطواع ، حديثها الفوار ...

والفى « محمد أفندى » نفسه يتزاحف إلى المرآة ... أليس الشبَح الماثل أمامه صورة رائعة من الرجولة الكاملة ؟ ... هيبة وجلال ... طلعة مشرقة ... عين نفاذة ...

وانتفش الرجل مزهوا يفتل شاربه الغليظ ...

مسكينة هذه الفتاة ! ...

ما أبينَ عذرها فى التعلق بمثل هذه الشخصية الجبارة ! ...

وتابع سيره فى الحجرة هين الخطوات ، وقد جعلت أشتات الخواطر تتداعى فى مخيلته ...

أما أنّ الفتاة له عاشقة ، وبه مدلهة ، فذلك أمر فوق الشك والخلاف ! ...

ولكن ما شعوره هو نحوها ؟ ...

شعوره ؟ ...

أفى المعقول أن يفكر « محمد أفندى » رئيس مخازن وزارة المالية الأسبق فى أن يأذَن لقلبه أن يخفق لمثل هـــذه الفتاة الريفية الدُّنيا ؟ ...

أوَ ينسى أنها عاشت وما زالت تعيش فى كفالة جدها القارىء ، ذلك الذى يتقوت من فتات المقابر ، وفُضالات الموائد ؟ ...

وما شأن قلبه اليوم بالغرام والهيام ؟ ...

لقد فرغ قديما من سلطان ذلك القلب وإذلاله ! ...

إن الرجل اليوم سيد نفسه ... هيهات أن يدع لقلبه مجالا للتمرد والتحكم والإملاء !

وما قيمة المرأة فى نظره الآن ؟

لقد انبتَّ ذلك العهد الذى كان فيه ينقاد لسحر النساء ، فأصبح الساعةَ هو الساحر ، وهو المعزّ المذل !

ولكن ما لهذه الأفكار والخواطر تتداعى فى رأسه حين يفكر فى تلك الفتاة الساذَجة العَطوف ؟

ليس فى الأمر مطمع فى أن يقابل حبها بحب . . . إن خطبها ليسير ... لا ريب أنها جديرة بلون من العطف والتقدير ، لقاء ما

تبذل من خدمة ، وما تُسكن من إخلاص...

ووجد قدميه تسوقانه إلى صينية القلل . فأخذ إحداها ينهل منها . وراح يستنشى بخورها . وكأنه يستروح فى هــذا البَخور عطر الفتاة . .

وعاد إلى المرآة يطالع فيها محياه ، ويفتل أمامها شاربه ...

وبعد فترة من الزمن شوهد الحلاق يختلف إلى منزل « محمد أفندى » يعنىَ برأسه وذقنه وأظفاره مستعيناً فى عمله بألوان العطور والدهــان . . .

ولوحظ على ربّ الدار أنه حريص على أناقته ، يُعِنها طويلا من وقته ... فإذا تنقل فى الدار مشى فى تخطر ، وإذا تكلم كان كأنه يترنم ، وإذا تحدث إلى « الشيخ عَزَبان » خلط حديثه بالدعابات والأفاكيه ...

أما صلته بالفتــاة فكان يتغشاها غموض حائر ، وصمت قلق . . .

ولم يكن بينهما من الحديث إلا تبادل كلمات مألوفة ، عليها صبغة الرقة والتلطف .

وظلت الفتــاة منطوية على نفسها ، ولكنها كانت فى الفينة بعد الفينة تُخالس ربّ الدار خواطف النظرات ، ونواعم

التنهدات .. وما كانت تغفل ساعة عن تعهد نفسها بالتزين والتعطر ! ..

١٥

وتواردت أيام على هذا النحو ، ثم بدا على « الشيخ عزبان » طارئ من وجوم وسهوم . فكان إذا جلس إلى « محمد أفندى » بدا كأنما يتهيأ للإفضاء بأمر يكشف عما يختلج فى نفسه من قلق ... ثم لا يلبث أن يتظاهر بالنكوص وتلافى الحديث ، والعدول بالكلام إلى مجرى آخر ، فيسأله « محمد أفندى » :

ماذا يريد أن يقول ؟

فيعتذر الشيخ بأعذار مختلفة ، ويحتج بأشتات من العلل ، وتأخذ علائم السهوم والوجوم مكانها من قسمات وجهه . كما كانت من قبل . .

وآن للشيخ أن يضع حداً لهذا التمهل والانتظار ... فقد ضاقت نفسه بذلك الليل الغامض البهيم الذى أبطأ انبلاجُ فجره ، أو لعل الأحرى بالقول أن الشيخ قد أحس أن الموضوع قد نَضِج ، وأن الثمرة قد أينعت ، وأنه قد حان القطاف !

وأقبل صبحَ يوم يجرجر جسمه المهزول ، قاصداً مُستشرَف

الدار ليَلقيَ « محمد أفندى » وهو مضطجع على أريكته . يسبح فى ملكوت الله ...

واتخذ مجلسه غير بعيد منه ، وجعل يجمع بعضه إلى بعض ، ويلملم ما انتشر من أطراف عباءته ...

ثم طأطأ رأسه لحظة وانهال على يديه يفركهما فى اضطراب ، فقال له « محمد أفندى » :

خيراً يا « شيخ عزبان » ...

فمكث الرجل خافض الرأس ، وهمهم فى صوت متخاذل :

لقد حضرت فى أمر أرجو أن تعيننى على تحقيقه ...

— لك ما تريد « يا شيخ عزبان » ...

— لقد لقينا من برك وكرمك فيضاً لا ننساه ما حيينا ... وإنى أطمع أن تتم جميلك بفضل جديد ..

— طلبك مجاب .

— تسمح لى أنا وحفيدتى أن نبرح الدار ، وأن تعفينا من واجب خدمتك ...

فألقى عليه « محمد أفندى » نظرة فيها الدهش والتعجب . وهمهـــم :

تتركان خدمتى ؟ ... ماذا جرى ؟ ..

فاشرأب الشيخ ، ورفع يديه إلى السماء ، وهو يقول صائحاً :

قسما بالله العلى العظيم إنى ما رغبت إليك فى هـذا الأمر إلا بالرغم منى ... ولو خيرت ما اخترت إلا أن أظل بقية أيامى تحت قدميك ، حتى أقضى نَحْبى ...

فاختلجت عين رب الدار وهو يقول :

لم أفهم شيئاً ... لماذا تتركاننى إذن ؟

فصلب الرجل قامته جهد ما يستطيع ، وقال وهو يُزيغ بصره عن جليسه :

أنت سيد العارفين ، وفى فطنتك غُـنْـيَـة عن الشرح والإيضاح

اللهم اشملنا بالستر والسلامة !

وانحنىَ « محمد أفندى » على شاربه يفتله ، محاولا أن يتفطن للأمر ، حتى يكون سيد العارفين بحق ، وحتى يكون الفطِن الذى لا يفتقر إلى شرح وإيضاح ...

ولكن الشيخ أسعفه بقوله :

ليس فى المستطاع أن أدع البُـنَـيَّـةَ فى الدار بعد الآن ... حسبها ما انتهت بها الحال إليه ...

وأراد « محمد أفندى » أن يتكلم ، ولكن خانته بديهته ، فجف ريقه ، وجمدت الكلمات على لسانه ، وسمع الشيخ يتابع قوله :

سأزوج البنت رجلاً اخترته لها . . . رجلاً من بيئتنا ، ملائماً لنا ...

وتهدج صوت الشيخ ، وهو يقول مهتاجاً :

لأرغمنها على الزواج ، رضيَتْ أو أبت ... أما ما تسميه قلبها فإني سأسحقه سحقاً ... عجيب أن يجمح الخيال بتلك البنت الغريرة إلى ذلك الأفق البعيد ! ...

ثم صوّب نظره ، كأنه يستمدّ من السماء عوناً في مأزقه الحرج ...

وما لبث أن أقبل على رب الدار هابطاً على يده يُنديّها بدموعه ، وهو يقول :

عفوك إن كنت فى ثورة نفسى قد أسأت إليك من حيث لا أريد ... اشملنى برضاك ، ودعنى أفرّ بالبنت إلى مصيرنا المقدور ...

وما هى إلا أن انصرف الشيخ عجلانَ الخطا ! ...

١٦

يا لها من ساعة دهياء ، قضاها « محمد أفندى » يتقلب على أريكته لا يستطيع بَراحاً ، ولا يجد من ضيقته فرجاً ..

انفرد « محمد أفندى » فى الدار يومه الأطول يجترّ همه ، ويعانى وحشته ...

ولما عضّه الطوى دبّر له طعاماً كما اتفق ...

وألحت عليه شهوة القهوة ، فلم يستطع بعد لأى إلا أن يُعِدّ قدحاً ليس بالسائغ ...

ولم يلبث « محمد أفندى » أن شعر بأن وسائل راحته تجشمه ضروباً من الكلفة والتعب ، سواء فى مشربه ونظافته وتنقله ...

فإن سمت نفسه إلى شىء شق عليه أداؤه ، وحَسَب له أعسر حساب !

فلما جَنّ الليل تكاثفت عليه الوحشة ، واشتد به الضيق ، فترك مُستشرَف الدار ، منتحيا حجرة النوم ، وجاز بالمرآة ، فشُل تجاهها لحظة ، فارتاع مما وضح له من سَحنة غبراء كاد ينكرها وألفى شاربه الغليظ قد تدلدل وتهدل ... فأدبر عن المرآة يقشعر ، وتهالك على المتكإ تتقاذفه الخطرات ...

حُق للجد أن يفعل ما فعل ...

إنه يريد أن يقف تلك العاطفة الجموح التى استبدت بالفتاة ...

إن الشيخ لأحزم عقلا ، وأنور بصيرة من أن يتطلع إلى تدبير غير هذا التدبير ...

لقد فكر في تزويج حفيدته شخصاً آخر ، كبتها لإلحاح [illegible] الداخلية ، وحسما لذلك الموضوع ...

ما أكرم أخلاق الشيخ ، وما أنبل نفسه !

إذن ستُزَفّ الفتاة إلى رجل لا يهفو قلبها إليه ...

وتخايل أمامه طيف الفتـاة ناظرة إليه في وَجد واسترحام ، يمازجها حياء وطهر ...

وَصَعّد الرجل تنهدة عميقة لم يطق لها كبتا ...

وتلاحقت لناظره مشاهد من حياة الفتاة في داره . فرآها في كنّ الأرانب رشيقة كالظبي ، فرحة مرحة ... ورآها وهي مرهفة السمع ، لا يكاد يلفظ من قول إلا سارعت إلى تلبيته ...

وهل ينسى مقدَمَها في الأماسيّ بصينية القلل يتضوّع بخورها ، فينعش نفسه ؟

وهل ينسيّ تلك الابتسامة الوديعة الحبيبة التي تودعه بها حين تحييه تحية الانصراف ، قائلة :

نوم العافية يا سيدي !

وزفر «محمد أفندي» زفرات متلظّية ، ثم استرخى على متكئه ، وترك للأفكار عنانه تطوّح به ، حتى أسلمه الإعياء إلى المنام ...

١٧

وفى بكرة قدم « الشيخ عزبان » الدار يقفوه ذلك الطاهى المجرم ، وقد تبدت على أساريره ذلة ومسكنة ، فأقبل كلاهما على « محمد أفندى » يحييانه تحية الإصباح .

ثم أخـــذ الشيخ بيد الطاهى ، مدنيا إياه من رب الدار ، وهو يقول :

قرب وقبل يد مولاك ، فإنه سمح النفس غفور ...

ولم يكن « محمد افندى » قد أعدّ لهذه البغتة عُدة من تدبير ، وأحس بالطاهى يركع بين يديه ، وهو يهمهم بكلمات الاعتذار والاستغفار .

وسرعان ما أفلتت من فم سيد الدار كلمة الصفح الجميل ... وما كاد ينطق بها ، حتى ثاب إليه وعيه ، فراجع نفسه وكأنه يلتمس المنفذ إلى استدراك ما أفلت ، ولكن الشيخ أخذ عليه الطريق ، مخاطبا الطاهى بقوله :

ألم أقل لك إن سيدنا البك رجل لا يحمل فى قلبه حقداً ولا ضغينة ، وإنه أسرع إلى العفو وأقرب إلى الرحمة ؟ قم فاضطلع بعملك ، وأقم الدليل على أنك أهل لهذا الرضا الكريم ...

وأتى « محمد أفندى » نفسه يصدر أوامره إلى الطاهى . فيتلقاها الرجل فى أدب وإذعان ، بيد أن هـذا الإذعان وذلك الأدب لم يدوما طويلا : فقد عاودت الرجل صلابة نفسه ، وحدّة طبعه ، وشـدة مرَاسه ، حتى إن رب الدار آلى على نفسه ألا يقرب المطهى ، لينجو من سلاطة ذلك الطاهى الحَرون ...

وطغت على الدار تلك الروح السابقـــة ، روح التزمّت والفوضى ، حيث لا راحةَ مكفولة ، ولا أنس شائع ، فكان « محمد أفندى » يقطع نهاره الممدود مَلولا فى مستشرف الدار ...

ومما جاء ضِغْثا على إبّالة أن « الشيخ عزبان » قطع عن الدار زوراته . وأناب عنه فى تلاوة القرآن غلاما زرىّ الهيئة : كأنما هو صعلوك شريد ... فكان يرفع عَقيرته بالقراءة ، ويهز قامته هزة عنيفة ؛ كأنه دُمية شائهة ذات لوالب . لا تهدأ لها حركة ، فيضيق به ربّ الدار ، وتثور فى نفسه مشاعر الاشمئزاز ...

وإذا أقبل الطعام مدّ الغلام إليه عينيه الضاريتين يرقب يد « محمد أفندى » وهى تعالج اللقمة حتى تسلمها إلى فمه ، وكأن هذا الغلام يعدّ على رب الدار ما يزدرد من لُقمات ...

ويا ويلَ « محمد » أفندى ، من الليل ...

إنه يهبط حاملا إليه ضروب الأرق والوحشة والاكتئاب ...

وعبثا كان الرجل يحاول التزلف إلى النوم بمختلف الوسائل ،

وطالما طرقه طيف الفتاة فى غدوٍّ ورواح ، وعلى محياها حزن وتحسّر ؛ وكأنما هى تستغيث به ، طالبة منه العون !

إنها تتضرع إليه أن ينجيها من ذلك الزوج الذى فرضه جَدّها عليها فرضا ، وأرادها عليه حتما ...

ولكن أنىَّ السبيل إلى النجاة ؟

كيف له أن يُبلغها ما تصبو إليه ؟

نحن فى الريف ، لا خِيرَة للفتاة فى من يكون زوجها ...

لو تمنعت وتأبت ، لعُدّ ذلك عليها عاراً أى عار ...

لا مصير لها إلاّ هذا المصير ، ولا سبيل إلى دفع ذلك المقدور ...

ستتزوج لا مَحالة ، وإن لم تحمل لزوجها أثارة من حب ...

لقد وهبت قلبها رجلا آخر ، رجلا تراه مصروفا عنها ، غيرَ معنىٍّ بأمرها ...

ما أقسى قلبه ، وما أغلظ كبده !

وفزعت يد «محمد أفندي» إلى مروحته عن كثب، فتناولها ثائر الأعصاب، يروّح بها وجهه المتضرم، ويلتمس منها مدداً لأنفاسه المختنقة، ولكنه لم يملك أن يصرف عن خاطره التفكير في شأن هذه الفتاة...

لن تحبّ الفتاة زوجها ... وكيف يستطيع ذلك القرَويّ الأغلَف إسعادها، بعد أن عاشت في كنَف «محمد افندي» فترة، فاقتبست منه شمائل الحضَر، وألِفَتْ منه رقة المعاملة وأدب المعاشرة، ولينَ الحديث؟

مظلومة هذه الفتاة التي أقصِيتْ عن هذه الحياة الحضَرية، وقُذفَ بها في جحيم لا تطاق!

وصابَرَ «محمد افندي» هذه العيشة التي يعيشها أسبوعا وبعض أسبوع...

أحكم عليه القضاء بأن يظل بين هذا الغلام الفج، وذلك الطاهي العَطِب: يزعجه الأول بصوته المسكر، ونظراته المنهومة، ويملك عليه الآخر زمام مَطْهَاهُ، ويغدو حاكماً بأمره فيه؟!...

وفى ضحوة يوم شوهد رب الدار يتركها بعد خلوة مديدة بالحلاق . ذلك الزائر الذى كان قد انقطع عن الدار منذ فترة ...

خرج « محمد أفندى » فى حلة قشيبة ، مفتول الشارب ، مُطرّى الشعر ، تتخطر فى يده عصا مفضضة ...

وقادته خطاه إلى كوخ « الشيخ عزَبان » فألفاه على المصطبة متربع الجلسة . فما إن أخذته عين الشيخ حتى انفتل قائماً ، يجاهد فى لمّ شعثه ، وصلب عوده ، وما أسرع أن فاض لسانه بالترحيب المكرر :

أهلا وسهلا ... أشرقت الأنوار ...

وانهمك على المصطبة ينظفها و يسوى عليها الحصير ، ويمهد مجلسها للزائر الأعز ...

ثم انبرى يصفق صائحا :

قهوة يا بنت لسيدنا البك . .

وما إن استقر المقام « بمحمد أفندى » حتى استشعر العزة والرفعة ، فجلس جلسة الإمارة ، وقال « الشيخ عزبان » :

كيف الحال ؟ ...

ـــ أى حال ؟ لقد كنت مُوشكاً أن أموت !

ـــ تموت ؟ كيف ؟ سلامتك !

ـــ سَلمك الله . . . لولا لطف الله لكنتَ الآن معزّيا فىّ !

ـــ لقد أحسستُ أنك متعَب . . .

ـــ قلب المؤمن دليله يا سيدنا البك . . .

ـــ قلت أزوره لأطمئن . . .

ـــ أكرم الله مقامك . ووفر طمأنينتك . . .

وتلفّت « محمد أفندى » حوله ، يرقب الأكواخ والمسالك ، ثم قال :

ما أحوج هذه القرية إلى جهاد موصول لإصلاحها وتنظيمها . . من أجل هذا تركت « القاهرة » ، وآثرت المقام هنا . . . إن مدّ الله فى عمرنا بذلنا ما فى وسعنا للتعمير والإصلاح !

ـــ كلنا ندرك فضلك ، ونشكر معروفك . . .

وانقضى وقت يتبادل فيه الرجلان حديث القرية ، وما تتطلب من أسباب النهوض . .

وأسفر بباب الدار مُحَيّاً لمّاح فوّاح بزينته وعطره . . . محيا الفتاة تحمل صينية القهوة ، فانتظمت « محمد افندى » اختلاجةٌ طالت به ، فلما دنت منه الفتاة خافضة البصر ، ابتدرته تحيه ، وتمد

يدها ، فترك لها يده تلثمها ، وهمهم :

كيف أنتِ ؟ ...

فأجابته فى صوت متلعثم :

ما دمت بخير فالحمد لله على كل حال ...

وما لبثتْ أن رجعتْ أدراجها إلى الدار ..

وأظل المصطبة صمت ثقيل ، وكان الجدّ ينكُتُ الأرض بعود يابس بين أنامله ...

وأراد « محمد أفندى » أن يستنجد بمشروعات الإصلاح للقرية انكشف عن المصطبة حُجب الصمت ، ولم تنجده بشىء ، فأخذ يسعل ويتنحنح .

وأخيراً قال الشيخ حازم اللهجة . وما زال يعبث بالعود :

غداً عقد زواج البنت ...

فأخذ « محمد أفندى » بما سمع ، وجمجم فى دهشة :

غداً ؟ ... غداً ؟ ...

— خير البر عاجله يا سيدنا البك ...

فقال « محمد أفندى » فى سهوم :

حقاً ، خير البر عاجله ! ...

ثم تقلب فى جلسته وقتاً . وقال :

يبدو منذه أن البنت غير راضية عن هذا الزواج...

- ليس ذلك بمهم ... راضية أو غير راضية !

...نا الشيخ برأسه ، وسرح ببصره فى الأفق ، ثم قال كأنما ...

أما من ناحية البنت فإن دمعتها لم ترقأ منذ نبتت فكرة الزواج !...

- حرام عليك !...

- هذا هو المقسوم ...

وتكاثرت حركات « محمد أفندى » فمرة يمر يده على جبهته ، وحيناً يهرش رأسه ، وتارة يهز قدمه . وطوراً تنبعث من صدره زمزمة وهرير ...

ويعالج أن ينبس بقول ، فلا ينفتح له شيء ...

وطال الصمت الجياش ، وكان الجدمهتمايواصل العبث بالعود

ووجد « محمد أفندى » نفسه يعتدل فى جلسته ، ويسدد إلى الشيخ نظره ، وقد انفكت عقدة لسانه ، فقال مندفعاً :

صل على النبي ...

فرفع الشيخ هامته ، متوقعاً أمراً جللا ، وقال :

اللهم صل عليه .

.. وأيضاً نصلي على النبي .

— اللهم صلاة وسلام عليك يا نبي !

— أنا خاطب إليك خطيبتك ...

وتراءى الشيخ في دهشة مصنوعة ، وهو يقول :

حضرتي أنا ؟

— لقد سمعت ما أقول ... أنا خاطب إليك فتاتك ...

فاندفع الشيخ يدعك يديه إحداهما بالأخرى ، وهمهم وقد حنى رأسه على صدره :

وهل نحن نسمو إلى هذا المقام ؟

— لقد استخرت الله ، وعليه الاتكال ..

٢٠

لم تتوارد أيام ، حتى كانت الفتاة زوجاً « لمحمد أفندي » تعمر داره ...

وانقضت الفترة الأولى كأنها حلم جميل ينعم به الرجل ليل نهار ...

لقد ألفى نفسه عروساً لفتاة غضة تزهيه بشبابها النضر ، وتنعشه بما تشيعه من بهجة ومراح وتعزه بما تبديه من ملاينة وملاطفة

وطوع ، حتى إنها لم تكن تستنكف أن تمتهن بعض ما كانت تقوم به قبلا فى خدمة الدار . . .

فضاق « محمد أفندى » ذرعاً بذلك التواضع . وأصدر إليها أمره أن تكف عن هذا الامتهان . . . ؟

كيف تبيح زوجة رب الدار لنفسها أن تبتذل كرامتها وكرامته بمزاولة الوضيع من شئون الخدمة ؟ . . .

آن لها أن تترفع عن ذلك كله ، وأن تكون سيدة الدار المخدومة ، وليس ذلك إلا بعض الجزاء لتلك التى أخلصت لرجلها ، ووهبته قلبها الفتىّ النقى ! . . .

لقد مسّت الحاجة إلى خادم يقوم على مرافق الدار ، فوقع الاختيار على الغلام ، تلك الدُمية اللولبية المنكرة الصوت . . .

فحمل الغلام أعباء الخدمة المنزلية ، متوّجة بهذه الأوامر والنواهى يصبها على رأسه رب الدار فى الغدوات والروحات . . .

وعرض « الشيخ عزبان » نفسه ليستأنف تلاوة القرآن فى مستشرف الدار كل صباح ، فتصدّى له « محمد أفندى » يأبى عليه القيام بهذا الأمر . . .

كيف يسوغ لرب الدار أن يدَعَ صهره يتعهد الأرض ، ويمارس شأناً جرى العُرفَ باتخاذه موردَ كسب ؟ . . .

« للشيخ عزبان » أن يقرأ ما شاء كما شاء ... فأما الراتب اليومى المعيّن ، فيجب أن يُوكلَ إلى قارئ آخر لقاء الأجر المعـلوم ! ...

وبعد جدال ونقاش استقر الرأى على أن يتولى الغلام تلاوة ما تيسّر من القرآن فى الضحوات ...

وهكذا اجتمع على كتف الغلام ما كان يقوم به الشيخ من تلاوة ، وما كانت تقوم به حفيدته من خدمات ...

وألفَ « محمد أفندى » صوت الغلام ، فلم يعد يتبرم به ، وكثيراً ما كان يحلو له وهو على المائدة يصيب طعامه أن يستدعى الغلام : فما إن يلبى دعوته ، حتى يقذف له اقيمات وأشتاتا من لحم ، فيلقفها الغلام خفيف الحركة ، كأنه قط منهوم ، فيبعث الرجل ضحكاته رنانة من أعماق قلبه ، ثم لا يلبث أن يعاجله بفيض من الشتائم ومرذول النعوت ، فيتلقاها الغلام داعيا لرب الدار بطول العمر ...

وعرف الشيخ طريقه إلى مخزن المئونة ، فاحتله كسابق عهده ، واتخذ منه مصلاه ومرقده وملاذَ راحته الأمين ... وقد جاهر « محمدَ أفندى » بأنه إنما يؤثر المقام فى هذا المكان على تقارب أرجائه ، حتى لا يكون فى وجوده بالدار ما يضايق العروسين العزيزين ...

وبدت من الشيخ حمية فى رعاية مصلحة الدار وشئونها ، وخص بموفور عنايته ذلك الطاهى المرون ... يكيل ثناءه ، ويحضه على طاعة رب الدار والإذعان لأوامره .. على أن ذلك لم يمنع أن يخلو الشيخ إلى الطاهى خلوات أنيسة ، يتبادلان فيها الحديث فى همس وإسرار ، دون أن تنالها الأسماع والعيون ...

طابت الحياة « لمحمد أفندى » فى ظل تلك الزوجية الجديدة ، ولكنه شعر بوطأة النفقات ، فلم يُلقِ لذلك بالا أول الأمر ، وكثيراً ما حدّث نفسه بأن الحياة إنفاق ، وأن للهناءة ثمنها ، وأنه ما دام كل درهم لايذهب باطلا فلا أسف عليه ...

وماذا كان يفعل « محمد أفندى » حين ترغب إليه زوجه آنا بعد آن فى ملبَس من الحرير ، وحينا بعد حين فى حِلية من الذهب ؟.. أليس من حقها أن تظهر بالمظهر الملائم لزوج له مقام كريم ، ومكانة اجتماعية ملحوظة ؟ ...

أو ليس من واجبه هو أيضا أن يرفعها إلى المستوى اللائق بمن تصبح له زوجا ؟ ...

٢١

وتجلت سيما الرفاهية على « الشيخ زبان » ، فأزهرت عمامته ،

ململة الطيات ، وتضرجت لحيته بصبغة الحِنّاء ، وَخبّ في قبائه القشيب ، وجبته الفضفاضة مهدّلة الكمّين ...

وأدرك التغير صوته . فانقلب هزاله وخُفوته قوة وجهارة ، وأصبح يصلصل في أنحاء الدار صليل الجرس الرنان ...

وكان « محمد أفندي » يسمعه ، فلا يملك إلا أن يرضى بتلك الحركة الدائبة لمصلحة داره ، ورعاية شئونه . ولكن هذا الصوت المجلجل على الرغم من ذلك كله ينفذ إلى أعماق قلبه . يحمل إليها الخشية والرَّهَب ...

وألِفَ الشيخ أن ينام إلى ارتفاع الضحى ، فإذا جاء ذكر هذه النومة الممدودة في عُرْض حديثه لأهل الدار . انبرى الشيخ يتحدث عن تهجّده وقَطْعِه الليلَ تلاوة وتسبيحًا وصلاة ، فما يَطْعَم النوم إلا بُعَيْد الفجر ... ومن ثمّ أصدر أمره علنًا إلى الطاهي وإلى الغلام ألا يزعجاه من نومة الغداة ، وألا يقلقا راحته بضجة أو صياح ...

وفي ضحوة يوم اشتبك الغلام والطاهي في حِوار . فما كاد يعلو صوتهما حتى انفتح باب مخزن المئونة ، وبدا الشيخ محمرّ الوجه متسمر العين ، وثاب الخطا ، وفي يمينه عصا خيزرانة ... وسرعان ما صبّ جام غضبه على الغلام ، منكراً عليه إقلاق

وإسكاته وإثارته من نومه ، وما هي إلا أن أخذ بتلابيبه ، وانهال على جوانبه ضربًا بالعصا ، دون إشفاق ...

وبلغت الجلبة سمع رب الدار ، فأقبل يستطلع الأمر ، فراعه ما شهد من صولة الشيخ وضراوته ... هذه أصابعه تتشبث برقبة الغلام ، وتلك يده تعلو وتهبط بالعصا ؛ كأنما يحركها عفريت من الجن ، وهاتان عيناه تحملقان ويتوقد فيهما الشر ... فأما الغلام فكأنما دجاجة بين يدي ذابحها ؛ لا تملك إلا الحشرجة والأنين ...

رأى « محمد أفندي » ذلك ، فأدركته بالغلام شفقة ، بيد أنه لم يستطع أن يقول كلمة ، وألفى قدميه تتراجعان ، وصادفته زوجته في طريقه ، فهمهم يقول :

الولد جدير بالعقاب ... للدار حرمة يجب أن تُرعى ...

ولوحظ على رب الدار أنه يطيل مكوثه في الفراش صبحاً غير نائم ، فما يَريمُ السرير إلا إن جلجل صوت الشيخ هنا وهناك ...

فيم التبكير باليقظة ؟ أليس لجسده عليه حقّ الراحة قبل كل شيء ؟!

على أنه ما يكاد يطرق سمعه صوت الشيخ ، حتى ينفلت من سريره كأنما أُنشِطَ من عقال ، وفُكّ من إسار ... فيبرز إلى مستشرف الدار ، مسرّيا عن نفسه الملول ..

وأذِنتْ الفتاة لنفسها أن تتدلل على زوجها وتتجنى ، ولم تلبث أن تغالت فى دلالها وتجنيها ، فكثيرا ما جاءت تجلس على ركبتيه تداعب خده بيدها الرّخصة ، وإذا بأصابعها تندس إلى صدره ، فتغترف منه النقود ... ثم تقفز عن حِجْره متضاحكة ، فإن غضب الرجل ورغب إليها فى ردّ ما غصبتْه إياه ، علت بصوتها قائلة :

أرنِى براعتك ... إن ظلتنى كان لك ما شئت ...

فيحاول اللحاق بها ، فتراوغه وتداوره ، حتى يأخذ منه الجهد كل مأخذ ؛ ويرتمى على المقعد منتفخ الأوداج ، مكروب الأنفاس ، يجمجم حانقاً . فتتظاهر الفتاة بالندم والتحسّر ، وهى تقول :

أحَسِبْتَنِى طامعة فى أخذ مالك ؟ إنك لا تفهم المداعبة !

وما هى إلا أن تواجهه كالغضْبىَ ، وهى تقول :

خذ نقودك . ولا تحنَقْ علىّ !

ثم تتدانى منه . وهى تغضّ من طرفها ، وتقلص من قسماتها ، فإذا جاورته جلستْ صامتةً باديا عليها الجدّ والاغتمام ...

فيفكر « محمد أفندى » فى أمر الزوجة هنيهة ، ثم يشعر بما

عليه من تَبعة فيما كان ...

إنه المَــــاوم ...

لقد انقلبت الفرحة بسوء تصرفه تَرْحة ، ولقد تغير الموقف من ملاطفة ومداعبة إلى مضايقة وانكسار خاطر ...

إنها فتاة طروب لعوب ، يجب أن تساس بغير هذا العنف ، وأن تحاسَب على غير هذا النحو ...

لقد أفسد الموقف ، وعليه إصلاحه !

وفيما هو سابح فى مراجعة نفسه وتأنيبها ، تمد الزوجة يدها بالنقود إليه فى صلابة وتجهم ، قائلة :

إليك نقودك التى عكرتْ علينا صفو المجلس ..

فيرد الرجل يدها فى رفق ، وهو يقول :

ليست المسألة مسألة نقود ، أبقيها معك ... أتحسبين أنى أضَن عليك ؟ ... لقد أخطأت التقدير ! ..

فلا تكاد الزوجة تسمع ذلك منه ، حتى تثب إلى عنقه تغمره بالقبلات والمداعبات ، وهى تقول :

لا حرمنى الله ذوقك وكرمك ، يانور عينى وبهجة فؤادى ...

كانت أمثال هذه المواقف تتكرر أشكالا وألوانا . فيتجشم لها الرجل من النفقة ما لا طاقة له به ... ولكنه يُلفى نفسه منساقاً ،

. . . لا يجد السبيل إلى الخلاص .

٢٦

وظلت سيماء الشيخ تريح البال ، وتزداد هدوءاً وتبشراً يوماً بعد يوم ، وربما اتفق « لمحمد أفندى » أن يسأل الشيخ في هوادة وملاينة :

ما الخـــبر ؟

فيقف الشيخ أمامه سامق الهامة ، مجنّح الذراعين ، كأنه نسر غضوب ، ويقول :

يا سيدنا البك . . . لقد خربتْ الذمم ، وفسد الناس ، فلم يعودوا يخشون الله . . . إن حولك ذئابا لا يتورعون عن النهب والافـــتراس . . .

وعلى الرغم من هذا الدفاع الحارّ ، كان « محمد أفندى » يحس أن مخزن المثونة قد نُزِعتْ منه البركة ، فهو بفضل رقابة شيخه الصالح ينهار ويتداعى على نحو يثير الدهشة والعجب ، حتى كِنّ الأرانب كانت يتناقص أوضح تناقص ، على الرغم من تغذيته دومـًا بوارد جديد . . .

وأسفر يوم عرف فيه « محمد أفندي » أن زوجه تستقبل بين جنبيها وليًا لعهده.. فعاجلته فرحة وإشراق.. ثمة وليد سيدالله بعد شهور ... وليد يضاف اسمه إلى القائمة السابقة الحافلة بالبنين والبنات ... ولكن ما أبينَ الفرق بين اللفيف القديم والوليد الجديد... أولئك لا صلة بينهم وبينه ، فكأنهم ليسوا منه .. أما هذا الجديد المنشود فله وَضْع غير ذلك الوضع ... إنه يتقدَّم كالزهرة النضيرة يضوع عطرها من حوله ، فيملأ حياته من بهجة وإيناس ...إنه يَتقدَّم ليتوّج الدار ، مثيرا فيها النشاط والمراح ... إنه ابنه الوحيد الذى يعرفه حق المعرفة ، ويتمتع به جِدّ التمتع ... إنه ابنه الوحيد الذى يَفرُغ لتنشئته تنشئة طيبة وَفقَ هواه ... إنه ابنه الوحيد الذى هو جدير بالانتساب إليه !

وجعلت الفتاة تَرْكن إلى فراشها متكاسلة ، حالية إلى جنينها ، توفر له الراحة والاطمئنان ...

ومرة أقبل « محمد أفندى » على زوجه ، مستلقية على فراشها تتظاهر بالتعب والإعياء ، فانحنى على محيّاها يودعه قبلة ملاطفة وإقرار بالجميل ، فإذا هى تُزَحِّيه عنها فى جفوة وضيق ... فيجب

الرجل مما أبدته ، وقال مبهوتاً :

أتنكرهين أن أقبلك ؟

— أنفاسى محتبسة ، وأنفاسك تحمل من التوابل ما يخنق نفسى ...

فابتعد الرجل عنها قليلا ، واتخذ مجلسه فى استنكار وضيق ...

وفى هذه اللحظة قـدم الشيخ وقد سمع ختام الحديث ، فانهال على ابنته تأنيباً وتعزيرا ، وجلس بجانب « محمد أفندى » يُطيّب خاطره ويترضاه ..

ولم ينقض عجب « محمد أفندى » حين قُدّم له غداؤه فى اليوم التالى ، فعرف أن الطعام قد خلا من التوابل ... فلما سأل الطاهى جليّة الأمر ، أجابه من فوره :

هذا أمر سيدنا الشيخ ...

وهرعَ الرجل يدرس هذه المشكلة التى تمس جوهر معاشه ، فقر قراره على أن يناقش الشيخ فى أمره مهما يكن من شىء ...

فتشجع مقتحماً مخزن المئونة ، قائلا لشيخه :

أحق أنك أمرت بإخلاء الطعام من التوابل ؟

— نعم ... أنا يا ابنى ... أنا الذى طلبت من الطاهى أن يفعل ذلك ...

نطق الشيخ بهذه الكلمات فى صوت لين المكاسر ، رقيق النغم . يسيل من عذوبة وصفاء ... فسأله « محمد أفندى » :
ولم هذا ؟

— من أجل صحتك ... كلنا نهتم بصحتك الغالية ... نبذل فى سبيلها كل شىء ... ما أضرّ التوابل بالصحة ... هكذا أكدتْ « تذكرة داود » ... يجب أن تكون بصحتك مَعْنيًّا .

— ولكن ليس فى صحتى ما أخشاه .

— إذا أثقلتَ على نفسك بهذه التوابل عاجلتك الشيخوخة ، ثم تندم ولات ساعةَ مندَم !

— أىّ كلام هذا يا سيدنا الشيخ ؟ !

هذه نصيحتى خالصة إليك ... إن اتبعتها . فبها ... وإلا فاصنع ما شئت ...

وكان الشيخ ينطق جملته الأخيرة فى لهجة يشوبها التهديد والوعيد ...

ترك « محمد أفندى » وكر الشيخ يكاد يتميّز غيظا ، فنىَ عزمه على أن يقصد توًّا إلى المطهى ، لكى يُبلغَ الطاهى نقضه لذلك الأمر الذى صدر إليه بإخلاء الطعام من التوابل ... ولكنه ألفى قدميه — دون وعى — تقودانه إلى مُستشرف

الدار ، فرمى بجسده على المقعد ، يسرّح بصره في الأفق ؛ ووجهه يتلهب . . .

٢٥

وعلى توارُد الأيام ازدادت الزوجة من تراخ وتكاسل ... لا تكاد تزول عن فراشها إلا عند الضرورة القصْوَى ، فهى منطوية على جنبيها انطواء الشحيح على كنزه الثمين يخشى انفلاته ، ويتوقّى الندم على ضياعه ...

وأحس « محمد أفندى » أنه كلما دنا منها عمِلت على إقصائه متلة عليه بألوان التعِلات . . .

وغربت عليه شمس يوم رأى فيه نفسه قد أقْصِىَ عن حجرة الزوجة إلى البهو ، حيث هيء له فيه مَبيت . .

وذات يوم نادى الغلامَ صبحا لبعض شأنه ، فلباه الطاهى مخبراً إياه بأن الغلام قد أخْلِىَ البارحة من خدمة الدار ، فسأله « محمد أفندى » :

من أخرجه ؟

— سيدنا الشيخ .

— لم ؟

ــ لا أدري .. هذا أمر سيدنا الشيخ ..

فاستجمع « محمد أفندي » واستعصم واستعان بالله ... وجرّ قدميه إلى وكر الشيخ يفاتحه في شأن الغلام فوجد الشيخ منكبًّا على غرارة الصابون يعد ويحسب ، فسأله :

ما حكاية الولد ؟

فأجابه الشيخ ، وهو ماضٍ في عدّه وحسابه :

لقد طردته .. إنه غلام كسلان صخّاب ، منهوم ...

ورفع رأسه عن الغرارة ، فبدا مغضن الجبين ، كالح الوجه ... واستأنف قائلا :

إنه كالذئب الجائع ... لو بقي لخربتْ الدار ... وفي طرده اقتصاد لمرتبه الذي يستولي عليه بلا جدوى ...

ثم علا بصوته الأجش قائلا :

يا سيدنا البك ، الاقتصاد لازم ... يجب أن ندبر أمور الحياة ، وإلا واجهنا المستقبلَ بأيام عابسة ...

فهمهم « محمد أفندي » قائلا :

ولكن الغلام كان يتولى شئوني ...

ــ الطاهي يستطيع القيام بما تأمره به ...

ــ إن الطاهي أعجز من أن يتم عمله الموكول إليه ...

فازداد وجه الشيخ جهامة وصلابة ، وقال محتد النبرات :

لقد فعلت ما رأيته الأصلح ، متوخياً خيرك ، فافعل أنت ما بدا لك . . .

وانكفأ على غرارة الصابون ، يستأنف العد والحساب ، وهو يجمجم مخاطباً « محمد أفندى » :

إذا شئت إرجاع الغلام إلى خدمتك ، فافعل ... ولكن لا تلمنى إذا جرى ما لا تحمد عقباه . . . البيت بيتك ، ولك فيه مطلق التصرف ... فأمر بما ترى . . .

وخرج « محمد أفندى » يحمل فى سمعه تفويض الشيخ إياه أن يفعل ما يريد ، وتصريحه له بأنه سيد البيت ، وأنه صاحب الأمر فيه . . . ولكنه لم يجد سبيلا إلى استخدام ذلك التفويض وتحقيق تلك الإمرة ، فلاذ بمستشرف الدار يلتمس فيه تفريجاً لما يجد فى نفسه من كربة وضيق ...

وما إن استقر على مقعده قليلا حتى أدركه الظمأ ، فصفق ، ثم صاح :

كوب ماء ... كوب ماء . . .

فلم يستجب له أحد .

فكرر الصيحة ، فلم تُرْوَ له غُلة ، فاضطر أن ينهض ويمشى

إلى مرافق الماء ، وتحسس بيديه القلل ، فتناول منها واحدة وهمّ أن يكرع منها فإذا هي فارغة ، ومد يده إلى الثانية فإذا هي أفرغ من الأولى ، ومد يده إلى الثالثة فوجدها أعطش منه ، فارتجف غيظاً ، وما أسرع أن دفع بالثالثة القلل إلى الأرض ، فتكسرت ، ورنّ لانكسارها صدى في جنبات أرجاء الدار ، فسمعت الزوجة صائحة تقول :

ما هذا الإزعاج للراحة ؟ ... ألا نستطيع أن نهدأ لحظة في هذا البيت ؟

وما كادت تتم قولها ، حتى هَدَرَ الشيخ يقول :

ماذا ؟ أيّ شيء انكسر ؟

فسرت في دم « محمد أفندى » خشية ، ورمق حطام القلة في حيرة وقلق ، فعاود الشيخ هديره أشد عنفاً :

ماذا ؟ أى شيء انكسر ؟ ...

فانبعث صوت « محمد أفندى » هزيلا متخاذلا يقول :

لا شيء .. لا شيء ... قلة سقطت ..

فهمهم الشيخ :

لا حول ولا قوة إلا بالله !

وتزحزح « محمد أفندى » عن مرافق الماء ، مؤخراً إرواء ظمئه إلى حين ...

وسرعان ما تكاثرت شهوات الوحم عند الزوجة . فلها في كل ساعة مطلب جديد ، ورغبة تتفنن في تلوينها ما وسعها التفنن .

فإن تراخى « محمد أفندي » في الاستجابة لتلك الشهوات ، أو استمهل في تحقيق هذه الرغبات ، بادرته الزوجة بإلقاء التبعة في عنقه إن أصيب وليده بضير . أو لحقه مكروه !...

وكثيراً ما عانى « محمد أفندي » ألوانا من المتاعب ، وجساما من النفقات . في سبيل مطالب الزوجة الوحمى ... فمن ركوب الدواب ، ومن احتمال لوقدة الحر في الظهيرة ، ومن تنقل بين الأسواق والمدن . طالبا لما هو عزيز المنال من فاكهة ومتاع .

وكانت الزوجة منذ لزمت فراشها ، يحمل إليها الطعام في مرقدها ، وكان الغلام يتولى ذلك قبل إقصائه ، فتولاه الطاهي من بعده ، فأما « محمد أفندي » فطعامه يحمل إليه في صينية خاصة ، حيث يقيم في مستشرف الدار ..

وبينما كان « محمد أفندي » يوماً يتلهب انتظاراً لغدائه ، إذ أقبل الطاهي خاوي اليدين ، يقول :

أتسمح ياسيدنا البك بالحضور إلى المطهى ؟...

— لمـــاذا ؟

— لتحمل صينية « الست » إليها ...

فحملق الرجل فى وجه طاهيه وقال :

أنا أحمل الصينية ؟ ... أمجنون أنت ؟

— لستُ بمجنون ياسيدنا البك ...

فصاح « محمد أفندى » :

أوْضحْ يارجل .

فقال الطاهى فى غير مبالاة :

هذه أوامر سيدنا الشيخ ...

فهبَّ « محمد أفندى » من فوره ، وقد انتفش شاربه ، ودمدم قائلا :

أوامر سيدنا الشيخ ؟ سأرى ماهى أوامر سيدنا الشيخ هذه ؟!

وطاوعته رِجلاه على أن يقتحم الوكر الحصين ، فألفى شيخه جالساً متشمراً يَكيلُ السمنَ فى نشاط واهتمام . فقال له متهدج الصوت :

أحقٌ أنك أمرت بأن أحمل الصينية إلى البنت ؟

فرفع إليه الشيخ عينه قائلا فى صوت متطامن :

هذا صحيح يا بنىَّ ! ... إذا كان الأمر يضايقك فلا تفعل ...

- أيصح أن أكلفك مثل هذا العمل ؟ أليس في المنزل من يخدم ؟ ...

فأجاب الشيخ في لهجته المتطامنة :

إن أردت الحق فلا خادم في الدار ...

— والطاهي ؟

- الطاهي ؟ ... الطاهي ! ...

وهز الشيخ رأسه فترة ، وهو يميط عن يديه ما علق بها من السمن ، وقال :

أيليق أن يقتحم رجل أجنبي فراش زوجك وهي في حالة حمل ؟ إني أعتقد أن نفسك الأبية لا تقبل ذلك ...

فبوغت « محمد أفندي » بهذه الإثارة ، وصمت هنيهة ، وهو يهرش رأسه ، وهينم :

على أية حال يجب أن تحضر خادمة ...

- فلنبحث عن خادمة ... أما الآن ...

- الآن ؟ ... الآن ؟ ..

— إذا رأيت أن أقوم أنا بحمل الصينية إليها ، فإني أفعل عن طيبة خاطر ...

ونهض الشيخ في جهد ، وما لبث أن رُئي وقد عاجله سعال

متتابع ، يشقق حلقه ويهز أركانه ، ثم إذا هو يترنح رويداً ، ويوشك أن ينقض ، فأسرع إليه الطاهى يحفظه من السقوط ، ويقول له :

يا سيدنا الشيخ ... أرح نفسك ... إنك تضنى صحتك فى خدمة الدار ...

ومازال الطاهى بالشيخ يسنده ويعنى به ، حتى تراءى بأنه قد أفاق وعاوده التمالك ...

وسمع يهمهم :

رحمة الله على أيام زمان . . أيام المروءة والإخلاص وتواضع النفوس ...

ثم التفت إلى الطاهى ؛ كأنما يوجه إليه قوله :

رضى الله عنك ياعمر ، يا أمير المؤمنين !... لم تستنكف أن تطهو بيدك الطعام لامرأة ! ...

ثم مص شفتيه فى تحسر ، وسرح ببصره طويلا فى الأفق ، وقال فى ترتيل :

« إنما المؤمنون إخوة... » « .. وتعاونوا على البر والتقوى ... » صدق الله العظيم ! ...

وخلل لحيته بأصابعه ، ثم استأنف قائلا :

المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشدّ بعضه بعضاً . . . صدق رسول الله في حديثه الشريف !

وتهاطلت على لسان الشيخ آيات وأحاديث وحكم تحضّ على التعاون بين الأزواج ، وتُشيد بالتواضع وخفض الجناح . . .

وكان كلما استرسل في ترتيله ، اشتدّ صوته ، واعتدلت قامته ، فما إن قارب الفراغ من إلقائه ، حتى كانت أرجاء الحجرة تتجاوب فيها أصداء ، كأنها هزيم الرعود ، ينذر غلاظ القلوب المتكبرين بأنكال وجحيم ، وطعام ذي غُصّة وعذاب أليم !

وارتد « محمد أفندي » عن الحجرة ، يجرجر خطاه ، مطأطىء الهامة ، يحسّ أثقال الخطايا تتراكم على مَنْكِبَيْه . . .

وساقته رجلاه إلى المطهى . . .

٢٧

وانتظر الرجل أن يظهر للخادمة أثر في المنزل ، وطال به الانتظار . .

ولم يكن بُد من أن يضطلع بشئون الزوجة ، لا يقتصر في خدمتها على حمل الطعام إليها ، وإنما يلي من أمورها كل ما تمسّ حاجتها إليه . . .

وكان كلما غمره شعور بالغضاضة من هذا الامتهان ، صافحت أذنيه أصداءُ مطولات الشيخ فى الترهيب من التكبر ، ومجانبة التواضع ، والتقصير فى عون الأقربين ... فيما رس عمله مجتهداً فى تسويغه لنفسه ، متكلفا الرضا والارتياح .

بيد أنه على الرغم من ذلك : كانت تجوزُ به لحظاتُ هم وضيق ؛ إذ تثور نوازعه ، فيتسخط ويتشكى ، وتملأ النقمة ما بين جنبيه ، ويتفق أن يمرّ به الشيخ فى مثل هذه الحال ، فيقف عنده متفرساً فيه ، قائلا :

أكبر ظنى أنك غير مستريح إلى مشاركتنا فى بعض واجبات المنزل . .

فيرفع « محمد أفندى » رأسه إليه ، مجيبا فى صوت وسنان :

لا يخطرُ لى هذا الأمر ببال ! ...

فيتدانى منه الشيخ مُرَبِّتًا كتفه ، يقول :

نحن جميعا فى خدمة القادم الجديد.. ولدك العزيز ... كل صعب فى سبيل خدمته يهون !

وتكاثرت مطالب الزوجة ، ولم تعد هـــذه المطالب تدللا وملاطفة كما كانت من قبل ، وإنما أصبحت بابا من الحقوق المشروعة ليس منه مناص...

هنالك وليد يوشك أن يهل على الدار بطلعته الوضيئة ... وإن لهذا الوليد لحقوقاً يجب أن تُرْعَى، ومطالبَ لا بد أن تُستوفَى...

ماذا فى أن تطلب الزوجة صنوفاً من الثياب والأمتعة لذلك الوليد؟

ماذا فى أن تطلب الزوجة إنشاء حظيرة جديدة للدجاج تنافس كِنّ الأرانب، حتى تستطيع هذه الحظيرة أن تُمِدَّ الأم النُّفساء بما يلزم لها من الطعام ؟ . . .

ماذا فى أن تطلب الزوجة جمعاً من الكِباش لإحياء يوم السبُوع، وللوفاء بالنذور لأولياء الله، حمداً له سبحانه على ما أنعم وتفضل ؟ . . .

ماذا فى أن تطلب الزوجة كل هذا وغير هذا كله من مطالبَ ورغاب ؟ ...

ولقد انتهى الأمر « بمحمد أفندى » تحتَ وطأة هذه الأعباء إلى أنه كان إذا ذُكر أمامه حديث الوليد الجديد، خُيلَ إليه أنه مهدد بهبوط شيطان يُنشب أظافره فى عنقه !

وكثيراً ما انفرد « محمد أفندى » بنفسه فى مستشرفه، يعرض تلك الحقبة الريفية من حياته : ماذا ربح منها ؟ وماذا خسر ؟

ولا يلبث أن يضطرب خياله، وتَغيمَ أفكاره، فيظلمَ أمامه وجهُ الرأى، لا يدرى أغانمٌ هو أم غارم ؟ وشقى هو أم سعيد ؟

وفيما هو يوماً يصطلى حر تلك الهواجس والهموم ، إذ أقبل الشيخ مقتحماً عليه خلوته ، وهو مترنح الأعطاف ، يتطلق محيّاه فى زهو . . . وقال له :

أبشر . . . لقد أرحتك من مسألة مهمة لم يكن لك بدّ من عناء القيام بها !

فسدّد إليه « محمد أفندى » نظره فى امتعاض كظيم ؛ كأنه يتساءل :

أىّ مسألة مهمة تلك ؟

فتابع الشيخ قوله :

لقد أوصيت بإعـــداد علبة ذهبية للمصحف الصغير الذى سيكون تميمة الوليد . . . ولن تكلفنا أكثر من عشرة جنيهات !

فصعّد إليه « محمد أفندى » نظره وصوّبه ، فتجلى له ما يتحلى به الشيخ من عباءة قشيبة . ومُطرَّف مزخرف ، وعمامة زهراء . . . وسرعان ما رجعت إلى مخيّلة « محمد أفندى » صورة الشيخ منذ عهد قريب ، وهو فى أسماله وأطماره ، بادى الذلة والبذاذة . . . فبرقت عينه ، وقال محتد اللهجة :

عشرة جنيهات ؟ . . . عشرة جنيهات ؟

فلاحقه الشيخ بردّه :

أتضَن بعشرة جنيهات على حراسة وليدك العزيز الذى تَعمُر به الدار ؟

فتوهجت عين «محمد أفندى» وأحس الغيظ يشتعل فى صدره ، ونهض واقفًا يَرْجُفُ ويصيح :

فلتنهدم الدار على رأس الوليد وعلى كل من فيها ! ..

وألقى نفسه يندفع مبارحا مكانه كالزوبعة الهوجاء ، وانطلق إلى الطريق . . .

٢٩

وبعد قليل بلغ الرجل بيت المأذون الشرعى ، فلما أقبل عليه فى ركنه منكَبًّا على دفتره ، حيّاه تحية عاجلة . وقبل أن يسمع ردّ التحية قال فى صوت زاعق :

صل على النبى . .

فارتاع المأذون لمرآه ، ومسح لُعابه . وقال :

اللهم صل عليه . . .

— لقد استخرتُ الله فى تطليق المرأة . . .

فتنحنح المأذون وقتا ، ثم قال :

أبْعدَ الله الشر ... ماذا جرى من بنت ابن الشيخ ؟ إنها بنت طيبة ، وزوا جُكما قريب ...

فصاح به « محمد أفندى صيحة مُنكرَة ، قائلا :

قلت لك : صل على النبي ...

ـــ اللهم صل عليه يا أخي .. ليكن بالك رائقًا ...

ـــ بالى رائق ... ولكنى اعتزمتُ تطليق المرأة والسلام !

وأعدّ المأذون نفسه لإلقاء محاضرته فى إصلاح ذات البَين ، والتنفير من أبغض الحلال ، ثم اندفع كاالسيل يشقشق بالعبارات والجمل . بَيْد أن « محمد أفندى » قاطعه قائلا :

أرحْ نَفسك من هذا كله ، فإنى أعرفه حق المعرفة ...

ـــ هذا واجبٌ على أؤديه ... وإن الدين النصيحة ، ولك ما ترى ...

ـــ لقد انتهى الأمر ، ولا رادّ لقضاء الله !

وسرعان ما دُوِّنَت وثيقة الطلاق ...

وشوهد « محمد أفندى » بعد أيام يَبْرح « كفر عقيق » متخذاً الطريقَ الزراعيّ العام ، يمشي مُنْسَرِقَ القوى ، مُتقَّعَ الوجه ، غائر العينين ، عليه معطَفٌ مُغبرّ ، وفى يده صُرّة مهزولة حوت كل ما يملك فى دنياه من متاع . . .

لقد أرْغِم « محمد أفندى » على أداء مؤخر الصداق وما إليه من نفقات . . وأحدق به الدائنون ، فاستوْفَوْا مالهم من ديون . . .

لقد فرغ اليومَ من « عملية التطهير » الأخيرة ، نخرج من القرية على هذا النحو ، يحدوه مصيرٌ مجهول ! . . .

من أناشيد البَرْدى

زَهرَة المرقص

١

فى إضمامة من أوراق البَرْدىّ العتيقة ، دُوِّنَتْ هـذه القصيدة التى يبسطها شاعرها على النحو الآتى :

إلى من تسقط فى يده هذه الأوراق ، أروى هذه القصة .

إنها غُفل من الأعلام ، فأرِحْ نفسك من محاولة التعرف لصاحبها .

إنه إنسان مثلك ، صَبَتْ نفسه إلى أن ينقل إليك هذا الحديث ، لعله واجدٌ فى ذلك تسرية ، كما أنت واجد فيه مَسلاة !

أما أن تعلم : أوَهْم ما يقال أم حقيقة واقعة ؟ فليس فى ذلك ما يَنتقِص من قدر القصة أو يزيد ...

أى جدوى لك فى أن تكون القصة من وادى الحقائق ، أو من صيد الخيال ؟

يقرؤها فى فُسحة من وقتك ، وفرصة من فراغك ، فإن شاركتنى إحساسى وشعورى . باركتك وطلبتُ لروحك أمنا وطمأنينة فى اجتيازها برزخ الأرواح ، ولجسدك سلاماً ورفاهية فى نَاوُوسه الحجرى .

وإن لم تقع هذه الأوراق من نفسك موقعها المؤمّل ، فلا تنكرْ علىّ ولا تلعنىّ ، إذْ أضعتُ وقتك هباء . واختر أن تكون سمح النفس ، كريم الخلق ، تنشُد الرحمة لهذا الشاعر المأخوذ الذى صَبّ عصارة عمره زيتا تضاء به ذُبالةُ الأوهام ...

هى قصة فتاة .

فتاة طالعت الحياة تمارس الرقص ، وتعرض فنها وفتنتها سلعة فى أسواق المواخير ...

لم تكن بذات حسن باهر ، يجتذبك بروعة القسامة والوسامة ، ولكن روحها الحىّ المتألق كان يسرى فى جسدها اللدْن المشيق ، فيتضوّأ ، ويبثّ من حوله الفتنة والسحر ...

إنك لتحسّ نور ذلك الروح وحرارته ، يشف عنهما ذلك الجسد ؛ كما تحس ضوء الشمس ودفئها خلف غلائل الغيوم .

إذا اتفق لك أن تراها عفو النظرة ، وهى فى مألوف الرواح

أو الغدو ، فإنك ربما ترفعتَ عن أن تعاود إليها النظر . بيد أنك ما إن تلمحها قد توسطت مَدَارَ الرقص ، وجعلتْ تنقل قدميها فى خفة وتراوح بين يديها بسطا وإرخاء كأنهما جناحا طائر ، وتتأوّد بخصرها كانسياب الجدول الرقراق ، حتى تراها وقد تضوعت منها فتنة نفاذة أخاذة ، وانبعثت من حواليها قَبسات مشبوبة تتغلغل بحرها بين الحنايا والضلوع

لم تكن تتحلى بزينة بالغة ، أو تتحسن بملبس زاهٍ ...

سرُّها وسحرها كمين فى ذلك الرُّوح الوهاج ...

إنه ليظـــل كأنما هو حبيسٌ قُمقم أحكم صمامه . فإذا ما احتوتها ساحة الرقص ، تخلى الصّمام عن مكانه ، وانطلق الروح كأنه بخورُ مسحور يشيع ولا يفتأ يشيع ، حتى يملك على الناس مسارب الأنفاس .

وقد تثير شَعرَهَا فى الرقص ، وكان سَبْط الغدائر فاحماً ، يتهدل كأنه سَعف النخيل تعابثه نسمات الأصيل .

إنها تستعين بشعرها على التفنن فى الرقصات ، فتارة هو غدائر تتواثب على الكتفين ، وطوراً هو سابغ على الصدر ، وحيناً هو غلالة تنسدل شفّافة هفهافة توقظ الإغراء.

وسرعان ما طار لهـا فى الأرجاء صيت ، وجرت بحديثها

ألسن ، فلم يبق فى الأرجاء قاصيها ودانيها من لم يعرف « زهرة المرقص » .

وماهى إلا أن تبوأت مكانتها فى سوامر الأمراء ، ومحافل السراة. فراحوا يتهافتون عليها تهافت الهوامّ على الشراب المعسول ، يَعُبُّون منه عب العطاش !

وكانوا يُثقلونها بأمداد من مال ومتاع ، فتثقلهم هى بألوان من دلال ومطال .

لا يصدهم ملل عن التلطف والتقرب والزُّلفىَ .

ولا تأخذها هوادة ولا رحمة فى تكسب واغتنام .

وما برح نجمها يتصعد ويأتلق ، حتى كان ماليس فى حسبان .

لقد توارت « زهرة المرقص » عن العيون ، فاعترى الناس طائف من دهشة وأسف .

أين ولت ؟

أمّا أنها ماتت ، فلا ...

لقد خلا ناووسها من جسدها المعطر ... ذلك الناووس الذهبى الذى شُغلت بإعداده ، وشغفت بتنميقه ، بضعة أعوام ...

أتراها ظعنت إلى ما وراء التخوم ، تقصد الشرق الأقصى ، لتروع بفتنتها أقيال الممالك ، وغطاريف الشعوب ؟

لو كان ذلك شأنها ، لترامى إلى الأسماع حديثهـــا ، فإن أنباءها قمينة أن تسيح بها طوافة النسيم ، وأن ترف بها أجنحة الطيـــور ..

وظل استخفاؤها لغزاً لا يتبين له وجه ...

هذا قصرها ، قد تخلت عنه ...

وتلك حلاها ، لم تعبأ بها ...

عجباً لها ... زهدت فى كل شىء ، وتولت تنشدها تائهات الظنون !

وتتالت الشهور . والناس على عهدهم يلهجون بذكر « زهرة المرقص » ولياليها الملاح ، ولا يملون فى شأنها السؤال والاستخبار ، يقلبون الأمر على شتى وجوهه ، ويتمثلون فى استخفائها أشتاتاً من الفرض والتخمين ...

فمن قائل : إنها برمت بحياة الظهور والترف ، فشهقت نفسها إلى عيشة شظف وانزواء ، ومن ثم احتوتها مثابة كاهن من الزهاد ، فى منقطع عن العمران .

ومن راجم بالغيب يرى أنها لم تجد لها كفؤا بين الرجال يقدرها قدرها الحق ، فآثرت أن تكون للنيل العظيم عروساً تفنى فى أبوته الخالدة !

وهناك من كان يزعم أن رب الأرباب « رع » قد أغرم بها ، فانتزعها من بين أحضان البشر ، وأفرد لها عشا فى ملكوته الرحيب تحيا فيه ، و بين الفينة والفينة يهبط إليها : ليتعرف أى شيء ذلك الذى يفتتن به البشر من لذاذة ومتاع ؟!

وكأين من قصص وأساطير أنيقة الوشى . جميلة التنسيق تتناقلها الألسن فى شأن تلك الراقصة التى ارتفعت عن أعين الناس ، كأنما أدبر عنهم إله !

٢

وذات مساء جلست لُمَّة من الناس . يتنادرون أمام إحدى الدور ، فى حاضرة الجنوب .

وساقتهم شجون الأحاديث إلى أنباء « زهرة المرقص » ، فشرعوا يتنافسون فى تجلية ما يدور حول استخفائها من أقاويل .

وكان بين السمار شيخ أشعث أغبر ، تقاذفتـــه الفلوات والأودية ، وعركته الرحلات والأسفار . فأما أديم وجهه ، فقد كان ملوحاً يضرب إلى السواد ؛ كأنه الفخار صهدته النار ... وقد عملت فيه السنون ما يعمل المحراث فى الأرض من أخاديد وتجاعيد . كل خلجة من خلجاته تفصح أنه جوّاب آفاق

تُسلِمة النجاد إلى الوهاد ، لا قرار له في أرض ، ولا مقام له في مَثْوى ...

كان الشيخ في الحلقة سَكوتا خافض البصر ؛ كأنما أخذته سِنة من النوم ، فلما خوت وِفاض الرواة من الأنباء ،وكلّت ألسنة الجُلاّس من التحاوُر ... سما الشيخ برأسه ، وانفرجت أجفانه عن وَمضات خابية كابية . ثم جعل يعتصر جبهته هنيهة ، وشرع يتكلم بصوت مستضعف منهوك ...

قال .

إنكم متسائلون عن تلك التي تلقبونها « زهرة المرقص » ... وإنكم لتقصون من أنبائها حديثا عجبا ... ولئن لم يكذبْني ظني لتكونن تلك الفتاة هي التي شهدتُها في بعض أسفاري القصْوى ... شهدتها في مطرَح نبا عن العمران ، يكاد لا يُعتدّ في عالمنا الآهل المسكون ...

وعاود الرجل صمته ...

فتصدت له العيون تسدد نظراتها كأنها سهام تحاول أن تنفذ فيه ، لتثيره وتبعثه على مواصلة الكلام ...

وران على المجلس صمت أشبه شيء بصمت المسجّى في ناووسه ، ينتظر عودة الروح ...

وعيل صبر الجمع . وضاقوا ذرعاً بهذا الترقب والانتظار ، فازدحمت الألسن بغتـــة تقتحم على الشيخ سكتته ، وتدانت منه الأجساد ، حتى ضاقت حوله الحلقة ، وأحس الأنفاس تتكاثف على وجهه ،كأنها زوبعة هوجاء من زوابع البيد التي قاسى عُنفوانها في رحلاته من صُقع إلى صُقع ! ...

فصاح الرجل وقد احتقن وجهه المعقد ، قائلا :

حسبكم منْ تَعجّل ! ...

ثم أشرع سبابته إلى نجم الاق فى عُرض السماء ، وقال :

إن هذا النجم أقرب لكم منالا من تلك التى تنشدونها ...

فازداد الجمـــع تألبا عليه ، وإحداقا به ، واستحثاثا له على الإفضاء بما عنده ...

فشعر الرجل بأن أنفاسه تحتبس ، وما لبث أن غاب عن وعيه ...

فلما ذهب عنه الإغماء . ألفى نفسه فى بهو تترامىَ أرجاؤه ، ويسطع ضياؤه ، ويشيع فيه نفحُ الأطياب ...

وطالعته عمدُ ضخام سوامق ، عليها النقوش والتهاويل . وراعته أستار من المُخمَل تحجُب النوافذ والأبواب .

فجعل يرجع البصر كرات فى ذلك البهو الرائع ، حتى استقر

نظره على منصة يعتلى عرشها رجل متلألىء فى أكسيته الزاهية ، ومن حواليه حشم وأتباع ...

وصافحت أذن الشيخ هذه الكلمات :

لقد ثاب إليه رشده ... قربوه ...

وما إن نطق سيد المنصة بكلماته . حتى أحس جوّابُ الآفاق بأيد غلاظ شداد تحمله ، فتاتى به عن كثب من قوائم العرش . فألفى نفسه يهمهم :

أين أنا ؟ . . . ماذا يُرادُ بى ؟ . . .

فدنا منه رجل وثيق الأركان ، فارع القامة ، فى حلة حربية لماعة ، وهو شاكى السلاح ، أظهر ما يظهر من قسماته نُدْبَة هى أثر جرح غائر فى جبينه ...

وما هى إلا أن قال للشيخ :

أنت بين يدى الأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية رب الأرباب ! . . . وإنه لآمرك بأن تفضى إليه بما فى علمك من شأن « زهرة المرقص » . . .

فأطرق الرجل وقتاً يلملم ماتبعثر من ذكرّياته ، ويجمع شمل خواطره ، ثم قال حائر النظرات :

ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلته . . . إنها فى مطرحها القصى ،

وإن نجم السماء لأقرب إليكم منها مَنالا . . .

فعلت صيحة الأمير ، وهو ينتفض من غضب :

ليس فى الوجود ما يتعذر علينا منالُه أيها الصعلوك الشريد . . .

أصدقْنى . . . أعلى ظهر الأرض هى فننشدها ، أم طواها أوزوريس في ملكوته الخفى ؟ . . .

فأمعن الشيخُ فى شروده ، وهمهم :

حقاً لست أدرى !

فصاح الأمير حازم اللهجة :

ألم تقل إنك رأيتها ؟

فقال الشريد ، وحدقتاه تدوران فى مَحْجَرَيْهما من حيرة واضطراب :

بَلى ... رأيتها ... رأيتها بعينىّ هاتين !

ورفع سبابته يشير بها إلى كلتا عينيه . فقال الأمير :

إذن هى فى الحياة ...

من يدرى !

وتعالت بين حاشية الأمير همهمة تساؤل واستيضاح .

وتحرك الرجل الحربىّ صاحب الندبة الغائرة فى جبهته ، ومالبث أن رفع يديه بسوط غليظ ، وقال :

أفصح ، وإلا ألهبتُ بالسوط ظهرك . . .

فريعَ الرجل ، وتكمش يرجُف ، ثم صرخ بصوت راعش :

قسماً برب الأرباب إنى لصادق فيما حدثتكم به !

وغامت الدنيا لعينيه ، واستلقى على أديم الأرض ، يستغيث هاذياً . . .

وتقدم الرجل الحربى ذو النُّدْبة من الأمير ، قائلا له :

مخبول هذا الرجل يامولاى ، أو لعله محموم !

— سواء أكان مخبولا أم محموماً ، فإننا لن نُفلته حتى يطلعنا على سره فى شأن « زهرة المرقص » !

وأقيم جوّابُ الآفاق فى حجرة من حجر القصر ، مخفوراً بأحراس ، محوطا بأسباب العلاج والتمريض ، مكفولة له راحة العيش . . .

وماانقضتْ أيام حتى استعاد الرجل طمأنينة النفس ، وصفاء الفكر . . .

وكان فى الفينة بعد الفينة يزوره الرجل الحربى ذو الندبة الغائرة ، فى يمناه سوطه يتلاعب به ، فيتحدث إليه تارة متبسطاً يستدرجه ، وطوراً مغلظاً له فى القول يتهدّده ، فما قدَر على طول المجاهدة والمعاناة أن يستخلص منه إلا أمشاجاً أشبه شيء

برؤيا نائم ..

عرف الرجل الحربيّ ذو الندبة أن جوّاب الآفاق رأى « زهرة المرقص » ليلة فى ضوء القمر ، وهى ترقص على مَرْج كأنه بساط من سندس ، تُحدق به تُخيلات فوارع، يجوس خلالها جدول رقراق ...

رآها ، ولكن كما يرى طيفا من الأطياف ، لا تأخذه العين إلا لمحا ...

وكانت تتردّد فى هذه الساعة أنغام ناى حَنونٍ ، لا يتبين له صافر ...

ولبث الجوّاب وقتاً بمرأى من ذلك ومسمع ، لا يعلم أطال به وقته أم قصر ؟ ... بيد أنه موقن أصدق اليقين أن صوتا هتف من حوله :

ابتعدْ أيها التائه الشريد عن هذا الوادى المقدس ... تنحَّ عنه لا تطأه بقدميك ... انج بنفسك ، وإلا حاقت بك غضبة القدس الأعظم . وحقت عليك لعنة الأبد !

ففر الجوّاب من فوره مذعوراً ، مستطار اللب ، يضرب فى المفاوز والفلوات ..

ذلك قصارى ما انتهى إليه حديث جواب الآفاق فى شأن

« زهرة المرقص » ...

٣

وجاء يوم شاهد فيه أهل المدينة قافلة تبرز من قصر الأمير ، على رأسها ذلك الحربى الفارع ذو النُّدبة الغائرة ، وعن اليمين جوّاب الآفاق ، ومن ورائهما الأعوان بينهم حَملة الأمتعة والأزواد .

وتناهى إلى المسامع أن القافلة إنما تبغى سفراً بعيد الشقة ، فى مهمة ذات بال . . .

وَفصَلت القافلة عن المدينة تودع الرفاهة والأمن ، بجوار النيل السعيد ، وتستقبل ذلك الخضم المسجدى من الصحراء ، تعانى فى قطعه ألواناً من العذاب . . .

وواصلت القافلة سَيرَها ، وسُراها . . . تسيل بها الوهاد ، وتعلو بها النجاد : فمن شمس تسلط شواظهـا ، وتلهب مواطىء الأقدام . ومن زوابع تبسط أستار الرمال فتُعشى العيون . ومن جفاف قاحل ماحل لازرع فيه ولا ضرع . ومن ليل موحش تسرى فيه زمزمة الضوارى ، وتتخايل أشباح العاديَات ! . . .

والقافلة فوق هذا العناء كله تمضى لغير هـدف مرسوم ،

إلا تلك الرؤيا الحالمة التى ألفت بين أشتاتها مخيلة جوّاب الآفاق الشريد ...

وما زال رَهط القافلة يمضون ويمضون ، حتى تجمعت من أيام رحلتهم أسابيع وأسابيع . وكأنما فوج من أسارَى حرب أفلتوا من مَأسرهم ، فهاموا على وجوههم يطلبون ملاذاً وقد عز الملاذ !

وشح الزاد ، وشاع فى الأجساد هزال وإعياء ، وعلت الوجوه غبرة الشظف والحيرة وغموض المصير ...

وتبادل الرفاق صمتاً يَرْدفه صمت . واستعاضوا عن الكلام بالنظرات تنم عن تخاذل وقنوط ...

واستبدت بقائد القافلة جهامة وعبوس ، ولم يعد يسأل جوّابَ الآفاق عن شىء ، فقد نضبَ معينه من قول يضيفه ...

لقد عاد القائد يفكر فيما ينجيه من ذلك التيه ، أكثر مما يفكر فى بلوغ الغاية وإدراك المنشود

لم تبق فى الركب قوة على متابعة المسير ، بل لم تبق فى نفوسهم أثارة من رجاء تشدّ من العزائم الخاوية ...

ولكن كيف السبيل إلى مَآب ؟ ...

أنىّ للقائد ذى النديه الغائرة أن يعود مجرجراً أذياله

خيبة وإخفاق ؟

بأىّ وجه يلقى الأمير ؟

بأىّ لسان يَبسط عنده العذر ؟

أينسى قول الأمير فى يوم وداعه :

إنه لمعدّ له أنكالا وعذاباً أليما إن هو قصر ، وإن هو لم يبلغ ذلك المأرَبَ العظيم !

أما جوّاب الآفاق فقد غشيه الذهول . وألحّ عليه الضعف ، وانتهى به الأمر إلى أن تملكته غيبوبة أصمّت سمعه ، وعقلتْ لسانه ! ...

فظل ممدوداً فى محفة يتناوب حملها رُفقة السفر ، منهوكى القوى ، لا يكادون يستطيعون لأجسادهم حملا .

وَصُبحَ يوم أقبل القائد ذو الندبة على جوّاب الآفاق فى محفته يصعد نظره فيه ويصوبه ، وقد بلغ منه الغيظ كلّ مبلغ . وما لبث أن أمر بإلقائه على متن الرمال تتولى رَعيه !

واستأنفت القافلة سيرها ... ولكن إلى أين ؟

وكانت الصحراء تتقاضى الرّكبَ كل يوم صريعاً هالكا أو موشكا أن يهلك . وكأنما لذ لها أن تقتنص كل يوم طعامها من تلك الأجساد التى أنضاها السفر ، وأضناها الكلال ...

وأخيراً حان يوم ألفى القائد ذو الندبة الغائرة نفسه فرداً يتنفس، لا عون له ولا رفيق، ليس من حوله إلا حُطام من متاع ...

وهبّت عليه نكباء من ريح الصحراء، أشاعت حوله الظلمة والعبوس ...

وأحس أنفاسه تختنق، والحياة تَيْبسُ بين أوصاله ...

وتواصلت أشهر، والأمير يرتقب عود الركب، يمنى نفسه بأوبة قائده المظافر، وقد اصطحب الضالة المنشودة ...

ولكن الأشهر رَدِفتها الأشهر، دون أن تذهب عن الأمير مرارة الانتظار والترقب.

وأخيراً دبّ اليأس إلى قلبه، فنسى شأن تلك القافلة التى أصبحت فى ذمة الظنون ! ...

٤

وفى أمسية من الأماسىّ المقمرة، تَحلق جمع من الناس بباب إحدى الدور فى حاضرة الجنوب، وهم يسمُرون ...

وفى أعقاب السمر تسلل بهم الحديث إلى شأن « زهرة المرقص » فتنازعوه بألوان من الحدْس والتخمين ...

وكان بين الجلاس غريب يشبه فى أسماله جوّابى الآفاق ،

تعبث بوجهه التجاعيد ، ذو بشرة لوّحها القيظ تكسوها غبرة ، وعلى جوانب وجهه يتهدل شعر غزير ...

ولم يكن يأخذ بطرف من أطراف السمر ، وإنما قنع بالإصغاء مطأطيء الرأس ، كأنما تسري فيه إغفاءة . فما إن عرض حديث « زهرة المرقص » وخاض فيه السّمار ، حتى جعل يرفع رأسه ، وينفض الغفوة عن جفنيه ، ويقلب في وجوه المتحدثين نظرات كليلة عشواء ...

ثم همهم في صوت راعش :

أعَن تلك الراقصة الحسناء تتحدثون ؟ ... أكبر ظني أنها هي تلك الفتاة التي لمحتها في بعض أسفاري القاصية ... إنها في مثابة لا تصل إليها قدم بشر ... إنها بعيدة عنا بُعد ذلك النجم السيّار ...

وأشار بيده إلى السماء !

فما عتم الجمع أن أطبقوا عليه يحاصرونه بأسئلتهم في إلحاح ، فلاذ الرجل بصمته ، وعيناه الكليلتان تدوران في حيرة وخبال .

وسرعان ما شاع في المدينة نبأ ذلك الغريب الذي يعرف سر « زهرة المرقص » ، فلم يلبث الرجل أن أحس بنفسه محمولا إلى قصر مُنيف ، واحتواه بهو فسيح الأرجاء تتراءى فيه العمد مزدانة بالرسوم والنقوش ... والأستار المخملية تكسو النوافذ

والأبواب ، وذلك العرش المتألق تحفّ به الأحراس والأتباع ...

وتدانى منه رجل بادن متكتل فى حلة حربية ناصعة ، وهو يتلاعب بسوطه ، وصاح به :

لقد سمعك الناس تتحدث عن « زهرة المرقص » ... فهلا أوضحتَ للأمير حاكم الجنوب المحفوظ بعناية ربّ الأرباب حقيقة ما تعلم ؟

فجعل الرجل يطوّف ببصره حوله ، يحاول أن يكشف عن مخيّلته ما ران عليها من ذَهلة وشرود .

وشاعت على شفتيه ابتسامة حيرى ، وهمّ أن ينطق ، فلم يملك .

وطال صمته ... وأحس لسعة السوط من يد ذلك البدين ، وهو يقول له :

ألم تَعِ ما أقول ؟

فجمجم الغريب ، متلعثما :

رُحْماك !

— لا رحمة قبل أن تُفضىَ بما عندك ...

فرفع الغريب عينه ، يبعث منها نظرة زائغة ، وقال :

لقد قلت لكم إنها بعيـــدة المنال ... بعيدة كنجم السماء ، ما أنتم ببالغيه ...

وهوى السوط على ظهره ، فصاح الغريب يتضرع ، وقال الأمير في صوته الركين :

أدركوه بجُرْعة من شراب ...

وصافح هذا الصوت سمع الشيخ الذاهل ، فأرهف له أذنيه ، وخيلَ إليه أنه صوت ينفُذ من بعيد ، مخترقاً طيات الأحقاب .

فأخذ يستنقذ ما بقي من ذاكرته تحت أنقاض الأحداث ...

وجيء له بقدح مُترَع بالشراب المنعش ، فاشتفه اشتفافاً ...

وجعل يعبث بشعره المسترخي على جوانب وجهه ، وما هي إلا أن استبانت في جبينه ندْبة هي أثر جرح غائر ...

وانتفض الأمير ، متنحياً عن عرشه . وأقبل على الرجل يتفحص سماته تفحص متثبت ...

ثم لم يملك أن صاح .

أهذا أنت ؟ ...

وانتبه الغريب ، واتسعت حدقتا عينيه ، وجعل يرنو إلى الأمير كأنه يميط الغبار عن صفحات طال بها العهد ...

ثم صاح فجأة :

مولاي ! ...

وخر ساجداً ...

وحُمل القائد ذو الندبة الغائرة وهو مَغْشى عليه إلى إحدى حجر القصر ، محوطاً بألوان الرعاية والاهتمام .

ومضت أيام والرجل طريح الفراش ، صريع الحمّى . . .

وكان الأمير يعوده فى الحين بعد الحين . فيلازم مرقده ساعة يصغى فيها إلى هذيانه ، وهو يقول :

« إنها فى واحة « رع » . . . واحته العليا ، حيث الخضرة السندسية ، ينساب فيها المـاء من لجـَين ؛ ويظللها النخيل الباسق بسعفه الفينان . .

يا لهذا الناى الساحر يَصفِر فيه رب الأرباب ، فتتخطر على إيقاعه تلك الفاتنة الحسناء . . »

وامتدت الحمى بالقائد ذى الندبة ؛ حتى أفضت به الوعكة إلى فقدان الحراك . . .

ويوماً ذهبت الحمّـى عن الرجل بغتة ، وعاجله صحو وَهَّـاج ، فأشرق وجهه ، وسطعت عيناه . . .

وسرعان ما طار النبأ إلى سمع الأمير ، فقدم من فوره ، وأقبل على القائد ، مستبشراً طلق المحـيا ، وتبوأ مقعده عن كثَـب منه ، فرنا إليه القائد فى ضجعته . وقد ضاءت على فمه ابتسامةٌ وديعة . . .

وجىء لهُ بقليل من شراب ، فَصُـب فى فمه ، فسرت فى وجنتيه

انتعاشة خفيفة . وبعد فترة لاطف الأمير يد القائد ، قائلا :

اُصْدُقْنى ... أحقاً رأيتها !

فهمهم الرجل خافت الصوت ، رزين اللهجة ، وئيد النبرات :

نعم رأيتها ... رأيتها بعينىّ هاتين !

وتاه ببصره فى الأفق ، كأنه يستعيد فى خياله ذلك المشهد البعيد الذى رأى فيه « زهرة المرقص » ...

ثم استأنف يُهَيْنِم :

ليست هى الآن من البشر ...

إنها حلم وردى ، تلوح أطيافه فى عالم المنام ...

إنها روح لطيف يسرى فى كون سماوىّ ...

إنها فكرة قدسية ، تَرِفّ فى ملكوت ربّ الأرباب « رع » ...

إنها شعاعة لمّاحة تدور فى فلك الإله « آتون » ...

إنها عصيّة المنال عن هذا العالم الأرضىّ ...

إنها ...

وما هى إلا أن عرت الرجل هِزّة ، فمال رأسه ، وتراخى وسكنت أوصاله ...

فابتدره الأمير مستحثّا ، فى تلهف ، قائلا له :

تكلم . . . أوضح ما تقول . . .

ولكن القائد كان فى هذه اللحظة قد خلص بروحه من دنيا الأباطيل والأوهام ، وأصبح فى ذمة « أوزوريس » حيث الحقيقة الخالدة ! . . .

إحسان لله

أدّى «أبو المعاطى» فريضة الفجر فى المسجد ، على مألوف عادته فى تأدية الفرائض حاضرة ، ثم غادر بلدته «كوم الزهر» القائمة فى بقعة مشرفة على النيل شمال القاهرة . فما كاد يخرج من البلدة ، ويمضى فى الطريق العـــام ، حيث الدّواب تروح وتجىء ، والسيارات العامة تنتهب الأرض — حتى كان أول شعاع من أشعة الشمس يحيى الكون تحيةَ الصباح . وكان النسيم رطباً مشبَّعاً بأنداء الفجر ، والحياة تبدأ انتعاشها البهيج والضوء فى بواكيره يختلج على صفحة النيل ، فتناجيه العصافير وهى تبرح أعشاشها تلتمس الرزق ناشطة .

بَيْـد أن ذلك الجمال الرائق الذى يبعث فى النفس الراحة والطمأنينة ، لم يظهر له أثر على وجه «أبى المعاطى» فقد وضح على سيماه طابع الهم والكآبة ، فهو يسير لا تعنيه سقسقة العصافير ، ولا مشى الدوابّ ، ولا جرجرة العربات . وإنما يفكر فى شأنه وشأن المهمة التى كلفه أبوه أن يقضيها له فى القاهرة : عليه

أن يقابل كاتب المحامى ، وأن يدفع إليه بعض الأوراق التى تخص قضية الأرض المتنازَع عليها بينه وبين أقاربه ... كلفه ذلك أبوه ، وضن عليه بركوبة يمتطيها ليصل بها إلى العاصمة ، فليس له إلا أن يقطع المرحلة سعياً على القدمين ، ثم يرجع بعد قضاء هذه المهمة راجلا كما ذهب . وما كان ليُعْنَى بهذا الأمر لو أن حياته العامة هنيئة رَغْدة ، وأن له جوانب من معيشته تمنحه السرور والغبطة .

استمر « أبو المعاطى » فى سيره ، وكلما فكر فى شىء تداعت أمامه مناظر حياته التاعسة منذ نعومة أظفاره . إنه شاب يافع يبلغ الثامنة عشرة من العمر ، حالفه سوء الطالع منذ شهد الضوء فى هذه الحياة ، فقد قضت أمه نحبها وهى تلده ، وفى اليوم التالى شبّ حريق فى الدار كاد يأتى على كل ما فيها ، وكان العام الذى قضى فيه طفولته الأولى عامَ جــدب عانت الأسرة فيه أسباب العسرة والضيق . فتشاءم الأب والأهل ، بل سائر من فى القرية ، بهذا الوليد الذى اقترنت بمقدَمه عوامل البؤس والأسى . ونشأ الغلام تحت سيطرة امرأة أبيه ، تغرى أباه بإبغاضه ، والتقزز منه ، والتشدّد معه ولم يكن بالفتى الوسيم المشرق الطلعة ، الذلق اللسان ، يستجلب ببشاشته القلوب ، ويسترعى بحلاوة لفظــه

الأسماع ، وإنما كان صموتاً منطوياً على نفسه ، بائن القماءة ، دميم الخلقة . فظل موضع امتهان أبيه وامرأته ، يكلفانه أعمال الدار ، فيؤديها صاغراً لا ينبس . وإذا جال فى القرية لم يُرَ إلا منفرداً ليس له من صاحب ولا من خدين . فإن صادفه أحد العابثين فحاول مناوشته بسخرية لاذعة أو سِباب جارح ، تصامَّ عنه ، وأولاه إهمالا وعدم اكتراث ، وهو يجيش فى وجدانه شعور الترفع والازدراء !

ولما بلغ مبلغ الفتوة انتهى إليه عِبْءُ الحقل كله ، فنهض به صابراً حمولا لا يلقى من ذويه على موفور جهده جزاء ولا شكورا . وما كان له إلا أن يُذْعِنَ ويستسلم لما أُريدَ عليه ، وكيف يستطيع أن يرفع بصره إلى أبيه متحدياً إياه ، وهو يراه على الرغم من علو سنه جبار العزمة ، مهيب الكلمة . وهل ينسى مرة أنه عمِل على أن يدخر مبلغاً من النقود فى مدى من الزمن مديد ، يبتغى أن يشترى به بعض ما تطمح إليه نفسه فى الأسواق . فنمَى إلى أبيه هذا الصنيع ، فاستدعاه إليه ، وطلب منه على الفور أن يخرج له ماعنده من المال ، فهمّ الغلام أن يثور ، وأن يأبى الاستجابة لهذا الأمر ، فهوَى أبوه على صُدغه بكف جبارة أخمدت الثورة فى مستهلها . وسرعان ما امتدت يد الغلام إلى أبيه ، لا ليذود عن

نفسه ، بل ليعطى أباه ما جمع من المال والآمال ... وترك الغلام والده مطأطىء الرأس ، يجر قدميـــه ، وقد تحيّرت فى مآقية الدموع . وفزع إلى المسجد ، حيث أوَى إلى ركن فيه ، فأسلم رأسه إلى ركبتيه ، واندفع ينشـج ويذرف العبرات . وأنهته سعلة عريضة ، فمال ببصره يتفقد من قدِم المسجد ، فرأى الإمام فى طريقه إلى المحراب ، يتعثر فى خطواته المهدمة . فنهض إليه يقبل يمنـاه ، وكان يلقَ أبداً فى رحابه أمناً ورفقـًا لا يأنسهما من سائر الناس ، فسأله الإمام : ما خَـطبه ؟ ... فأخذ يسرد له ما وقع من أبيه ، فربّتَ الإمام ظهره ، وطيّب خاطره قائلا :

أباك ! أباك ! ... أنت ومالك لأبيك ... كن طيّعـًا صبوراً تغنم ثواب الله ...

ثم تحسس جيبه ، ومد يده إلى « أبى المعاطى » وهو يقول :

قد تجد يا بنىّ فى هذا المبلغ على ضآلته بعض ما يعوضك ممـا فقدت ... وليـكن قـَرْضا ...

فردّ يدَ الشيخ فى أدب وتمنع ، وشكر له جميله ، وانصرف من المسجد أهدأ بالا ...

جدّ « أبو المعاطى » فى طريقه ، تتوارد هذه الذكريات على خاطره ، وبدأ يشعر بأشعة الشمس تلفَـــح وجهه ، والعرق

يتصبب من جبينه وصادف في سيره قرية قام فيها سوق الأسبوع، فجاز بها ينظر ما يُعرض فيها من ألوان السلع، واختلب نظرَه فوق كل شيء منظر الطعام، فقد رُصتْ بعض الصوانى عليها أشتات المأكول من أرز مطرز بأخلاط شهية جذابة، ومشويات يفوح قتارها فيفغَم الأنف بأزكى الرائحة... فرجعت به الذاكرة إلى أيام صباه الباكرة، حينما شهد وليمة أعدها العمدة احتفالا بزواج حفيده، فذاق مثل هذه الألوان، وما فتئ منذ ذلك اليوم يجد طيبها فى فمه... وأبطأت خطاه فى جوانب السوق، إذ كان يمتع البصر بهذه المرائى التى فتنت لبّه، ويستنشق عبير تلك المطاعم التى تحلّبَ لها ريقه... ثم انساق بقدميه ليبتعد عن هذه الناحية، ولم يلبث أن أحس بجوعه، فتلمس جيبه ليستخرج اللفيفة التى أعدتها له امرأة أبيه تحوى كِسَرا من الخبز اليابس، وقطعة من الجبن القريش. وهم بأن يُسكت جَوعته بقضمة؛ ولكنه تذكر أن هذا زاده كله فى رحلته الطويلة، فعليه أن يحسنَ تدبيره حتى لا ينفَدَ قبل انتهاء مهمته وأَوْبَته...

واسترعى نظره ضريحٌ شاخص على الطريق، لأحد أولياء الله. فمدّ الخطا إليه، وما إن داناه حتى أمسك بشباكه، وقرأ له

الفاتحة ، ثم أخذ يتضرع ويبتهل ، ويمسح وجهه بيديه مرات . . .
وكان بجوار الضريح سائل مكفوف البصر يتلو بعض آى الذكر الحكيم ، وإذا برجل ممتط رَكوبة مطهمة ، تدل سماته على اليَسار والنعمة ، فأخرج كيسه المنسوج ، وأخذ منه قطعة من النقود دسها فى يد القارىء ، ولم ينتبه إلى أن قطعة أخرى سقطت من الكيس ولكن « أبا المعاطى » لمحها على الأرض فأسرع إليها ، وأخذ يقلبها بين أنامله فترة ، وكان القارىء قد عاد يرفع صوته بآى الذكر الحكيم ، فألفى « أبو المعاطى » نفسه يرفع عينيه إلى الضريح هنيهة ، ثم عدا فى طريق الرجل المحسن الماضى على مطيّته ؛ فصاح به حتى استوقفه ، وناوله قطعة النقود التى سقطت منه . . .

واستأنف « أبو المعاطى » سيره يغادر السوق ، وقد اشتدت وطأة الشمس عليه ، وأحس بالهمّ ينمو فى نفسه ، والمتاعب تتجمع على كتفيه ، وعاودته ذكرى قطعة النقود التى ردها إلى صاحبها ، وتراءت لعينه صوانى الرز والشواء ، فتضاربت بين جوانحه مشاعر الأسف والحيرة والقلق ... وانحنى ناحية على الجسر ، ووجد ألا بدّ من أن يخرج زاده من جيبه ، وأن يتناول منه مضغة تردّ عنه السغَب . وبينما هو جالس يأكل ، سمع هرير كلب على مقربة منه ، فحول إليه بصره ، فوجده يرقبه عن كثب فى خوف وحذر .

وجعل الكلب يرسل إليه نظرات توسل واستجداء، وهو يلوك لسانه بين فكيه ، فحدجه « أبو المعاطى » بنظرات نكراء ، وماعتم أن تناولَ حجراً قذفه به ، فانطلق الكلب يعوى فى ذلة المقهور ، وأقبل « أبو المعاطى » على طعامه يغمغم بالسباب !

ثم نهض يتابع سيره ، وقد بدأت الطريق تتشعب ، فانطلق يسأل هذا وذاك :

أين السبيل إلى القاهرة ؟

ودخل المدينةَ دخول الحائر الوَجِل ، وقد بدأ صخب الحياة يكتنفه ، فطفق يستدلّ على مقرّ كاتب المحامى فى حىّ « السيدة زينب » . . . وشارف المسجد بعد جهد ومشقة ، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ ، فأراد أن يريح جسمه بجلسة،وأن يصلىَ ركعتين بجانب المقام . وبعد أن أدى فى المسجد الصلاة ، تعلق بأستار الضريح ينفض نفسه فى مناجاة وضراعة ، ثم عَدلَ إلى الباب ، فرأى أناساً متفرقين يجلسون ، فاختار مكاناً ظليلا رطباً جلس فيه ، وقد اعتزم أن يذهب إلى كاتب المحامى بعد أن يستوفى قسطه من الراحة والتفرّج ، واستند إلى الجدار ، فغفا غفوة لم يَدْرِ مداها ، وعند ما استفاق من نَعسته وجد الحركة تشمل المسجد ، والأرجل تكثر غادية رائحة ، وبينما هو فى جلسته . مسترسل فى

تفكيره ، إذ أحس شخصًا يقترب منه ، وشيئًا يُلقَى في حجره ، فرفع جفنيه ، وتطلع إلى ذلك الشيء ، وإذا به قطعة مغربية من النقود ، فأمسك بها يقلبها ، وهو ينظر إلى الذى ألقاها ، فهم أن يعيدها إليه ، ويخبره بأنه ليس بشحاذ ، ولم يكد يفعل حتى كان الرجل قد غاب في زحمة السابلة ، فجعل يتفقده برهة دون أن يجدَه . ولمحتْ في فكره على الأثر مناظرُ الصوانى عليها الرّز المطرّز والمشويات الشهية . أليس هذا رزقا ساقه الله إليه ؟ أو ليس هو بركة « السيدة زينب » وساحتها الكريمة ؟ وتلفت يَمنة ويَسرة ، فلم يجد أحداً يُعيره التفاتة ، فأسرع بقطعة النقود يحفظها في جيبه ، ورغب في القيام ، ولكن هاجسًا هجس في خاطره أن استرحْ قليلا ، ففى الوقت مندوحة ، وليس مقر كاتب المحامى ببعيد . وفيما كان يسبح في أخيلة شتى ، وجد امْرءًا في منصرَفَه من المسجد ، أنيق البِزةّ وجيه الطلعة ، تحفّ به شمائل الطيبة . فتصدى له سائل كسيح يَظلع على عُكازته ، ومد له يمينه مستعطفًا ، فنفحه الوجيه بقطعة من النقود ألهجت لسانه بالشكر والدعاء . فأحس « أبو المعاطى » على الفور بيده تمتد ، وكفه تنبسط ، فوقع بصر الوجيه عليه ، فأخرج قطعة من النقود ، وألقى بها إليه ، فاختلج قلبه وأسبل أهدابه متناومًا . وبعد هنيهة استخفى شبح ذلك الوجيه ، فجعل

« أبو المعاطى » يضمّ قطعة النقود إلى أختها الأولى ، ثم انسرح يفكر : ماذا يأكل ؟ وأى الألوان يختار ؟ وتباينت تَصوُّراته فى شَهَوات الغذاء !

ووجد نفسه يطيل الجلوس ، فهتف به هاتف : ألم يَحِن الوقت لأن يهبّ إلى كاتب المحامى لينجز المهمة التى قَدِم من أجلها ؟ ولكن يده كانت على حالها مبسوطة الكف ، وعينيه كانتا مطبقتَى الأجفان . وسمع اثنين يتحدثان على مَقرَبة منه ، فيقولان :

حقاً إنه لسائل جدير بالإحسان !

وهبَطت على يده فى الحال قطعة النقود ، فخطرتْ ببال « أبى المعاطى » صورةُ القارىء القاعد بجوار الضريح ، وهو فى جلسة الذّلة والمهانة ؛ فتحركت فى قلبه أشياء من الأنفة والعزة ، وتهيأ ليفارق مكانه ، فإذا امرأة عجوز تتوكأ على عصا تدنو منه ، وتضع فى يده على استحياء وصمْت قطعةً من النقود لها قيمتها ، وتهمس فى أذنه ملحّة أن يسألَ لها الله شفاء ابنتها التى أضنتها العلة ، فلم يتحرك فى مجلسه ، ولم يفتح عينيه لها ، واجتهد أن يقاص من قسمات وجهه تعبيراً عن معنى الابتهال إلى الله ، وهو يهمهم بكلمات مضطربة لم يستبن منها حرف ، وعادت العجوز أدراجها ، وهى تقول :

الدعوةُ من خُدام المقام هؤلاء ، ليس بينها وبين السماء حجاب ! . . .

وامتدت جلسة « أبى المعاطى » وعَمر جيبه بقطع النقود ، فما كاد الظلام يُرخى سدوله ، حتى فترت الحركة ، وانقطع سيل الزوار . فنهض يلمّ شعثه ، ويستقبل الطريق يتحسس النقود ، ويعدها مرة بعد مرة ، وقد أدار فى ذهنه أن هذا المبلغ من المال يعدل كسبَ أيام معدودات فى الريف ، عاملا فيها على أديم الحقل فى وَقْدَة القيظ ، مقاسياً ضروب المشقة والكد ، وها هو ذا قد يسره الله له وهو فى جلسته الهادئة الوادعة . أو ليس برهان رضا أسبغه الله عليه ؟ أو ليست هذه رحمة ربانية تستوجب مزيداً من الحمد والشكران ؟ ورفع بصره إلى السماء ، مبتهلا إلى ولىّ النعم أن يديمَ عليه مِنَّتَه ... ثم مسح وجهه بيديه كلتيهما !

وانساب يتصفح الحوانيت متشمماً يبحث عن طعام ، ومَثَل أمام وِجْهة الزجاج على باب أحد المطاعم ، وقد فتنته من ورائها مناظرُ الشواء تتطاير رائحته شهية مغرية . فأعاد راحته إلى جيبه يتلمس النقود ، واشتبكت فى رأسه أسراب الأمانى : لم لا تكون هذه الصرة نواةَ ثروة يشترى بها ثوباً أنيقاً يجمّله ، وقَلَنسُوَة تزهو على جبينه ؟ ألا يمسكُ رَمَقه ببقايا الزاد فى

اللفافة التى أعدّت له ، ويحتفظ بما جمع ؟ وهنا ازدحمت على خياشيمه روائح الشواء ، فما هو إلا أن اندفع نحو المطعم ، وملأ بطنه بما لذّ وطاب حتى اكتفى ، ثم خرج يتجشأ نَشوانَ ، وسار بخطوات أثقلتها التخمة ، وقد أحسّ الرغبة الملحة فى أن ينام ...

وما كاد ينعطف فى أحد الأزقة المجاورة حتى أتى زاوية مهجورة بجوار خربة قد تمدد فيها أحد الصبية المشردين ، فانتحى مكانًا غير بعيد منه ، فمهّده لرقاده ، متوسداً ذراعه ، ولم ينس قبل أن يُسلم للكرى مقلتيه أن يخرج نقوده ويعدّها ، فرأى أنه لم يبق منها إلا فلول ، فقد مضى الأكثر الأغلب فيما حشا به بطنه من ألوان العشاء . فلبث يتأمل البقية الباقية ، ثم أحكم رَبْطها ، ووضعها فى قَرارة جيبه ، وهام فى أحلامه ، معتزمًا أن يقضىَ مهمته مع كاتب المحامى من غده ، ويبرح القاهرة إلى بلدته ، مكتفيًا بما راح له من عطية الله ... !

ولما أهَلت تباشير الصباح ، انبعث من مرقده ، فكان أول ما سنح لخاطره أن يتحسس ربطة نقوده ، فاطمأن إلى سلامتها ، وبنى عزمه على أن يكون فى يومه قَنوعًا . فعرّج على لفيفة الزاد التى جلبها من البلدة معه ، ففكّ وَثاقها ، وبسط رُقعتها أمامه وجعل يرنو إليها برهة ... ومر برأس الزقاق بائع جوّال ، يحمل

صينية فطير ، وهو يصيح متغنّيًا بما ضمّت من حُلو لذيذ . فمدّ « أبو المعاطى » يده إلى زاده ليتناول أول لقمة يتبلغ بها ، فإذا بيده ترتد إلى قرارة جيبه ، وتستخرج ربطة النقود . وسرعان ما استوقف بائع الفطير ، فابتاع منه واحدة ، والتهمها على الأثر ... وما كاد البائع يضع الصّينية فوق رأسه ، ويستأنف سيره ، منشداً مقطوعته فى الإشادة بالفطير الحلو اللذيذ ، حتى وثب إليه « أبو المعاطى » يبتاع فطيرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة ... وألقى نظرة على ربطة النقود ، وقد خوت مما حوت : ماله وللنقود يتحسّر على ما أضاع منها ؟ لقد تناول فَطوره ، بحمد الله ومَنّه ، وهو قاصدٌ مَقر كاتب المحامى يقضى مهمته فى لحظات ، ثم يثوب إلى بلده راضيًا ...

وسارَ مُجِدّا يدفع بِمنْكبيه الهواء ، فما إن قطع الزقاق ، ومال إلى الطريق العام ، ووجد نفسه فى متّجه المسجد ، حتى شعر بخطاه تتئد : أيليق أن يقرع أبواب البيوت فى ذلك الوقت الباكر ؟ وهل يجوز أن يذهب إلى كاتب المحامى قبل أن يؤدى فريضة الصبح ؟... إلى المصلى إذن ...

ومضى إلى المسجد حتى بلغ بابه ، فوقف يتأمل رُوّاده بين ذهاب وأوْبة . واسترعى انتباهه أنه وجد حواشىَ الباب

وقد عشش فى كل ناحية منها سائل مستقرّ فى وَكره ، كأنه مقامه الموروث ... وثنى طرْفَه إلى الركن الذى كان يستريح فيه أمس حين قدومه القاهرة ، فرآه خالياً ... ها هى ذى الشمس قد سطع شعاعها منذ برهة ، ولم يعد لوقت الصلاة مُتسع ، فسواء عليه أن يصلى الصبح الآن أو بعد فترة . لا جُناح عليه إذن فى أن يستمتع وقتا بنسيم الصباح البهيج فى ذلك الركن الظليل . فأفضى إليه ، واحتله فى طمأنينة وسكون ، ومرت فترة لم يتحرك فى جلسته ، وقد أسبل جفنيه إلا قليلا ، وتظاهر بالنعاس ، فسرت إلى أذنه همسات مبهمة ؛ فألقى إليها سمعه وباله ، وأدار حوله النظر خُلسة ، فاستبان له أن السائلين يتهامسون فى شأنه ، ويتغامزون به ، فأغضىَ ، ولم يُبد لهم أنه فطن لشىء .

وشرع رُوّاد المسجد يتوافدون على أبوابه ، وأخذت قطع النقود تتهافت على يد « أبى المعاطى » فكان يتلقطها ويدسها فى جيبه عَجولا ... ولا حظ أن من يمر به من المتصدّقين يقف برهة يتفرّس فيه ؛ ويتألم لما يبدو على وجهه من علائم البؤس والمسكنة . . . فأدرك أنه قد أوتىَ ملامح معبرة تستدرّ الإشفاق . وما كاد يفطن إلى ذلك حتى ازدادت تلك الملامح من وضوح ، وصحبتْها أنات وترنيمات تجتذب الأنظار .

وطالت الجلسة ، وتوافر المــــدَد ، ورفّ على ذاكرة « أبى المعاطى » شأنه مع كاتب المحامى ، ووعدُه أباه أن يعود إلى البلدة فى يومه ، فاهتز فى جلسته ضجراً ... ليس بالأمر المنكر أن يبقىَ بالقاهرة يوماً ، على أن يعود لا محالة غداً ، أليس له بعد أن أمضى فى العمل المتواصل دهراً طويلا يَكَدّ ويجهد نفسه لمصلحة أبيه أن ينال حظه من المتعة يوماً ؟ ! لقد اعتصر دمه فى سبيل منفعة الأسرة والقيام على مرافقها ، أفما آن له أن يستجمّ قليلا بعد طول الكد وفرط العناء ؟ وفوق ذلك لن تكون النقود التى جمعها من حقه وحده ، بل إنه سيُشرك فيها أباه . وهل يبلغ به الجحود أن ينسى نصيبَ أبيــه مهما يكن من أمره معه ؟

أخلدَ « أبو المعاطى » إلى هذه الفكرة ، واستقرّ فى جلسته ، يستنشق النسيم العليل فى الركن الظليل ... !

وانطوى اليوم ، و « أبو المعاطى » فى مكانه بجوار المسجد تهبط عليه الحسنات ، فمــا هو إلا أن يأخذها حسنة بعد حسنة ويُودعها قرارةَ جيبه ، وهو هائم يتنقل بين التصورات والأمانى .. وظل كذلك لا يستطيع بَراحاً ، وحين أحسّ بالجوع فى بعض النهار ، تبلغ بشىء مما يطوف به باعة السوق .

وما كان له أن يبارح مكانه والناس بين مقبل على المسجد ومنصرف عنه ... فلما آذنت الشمس بالمغيب ، أبصر بالسائلين المرابطين حول المسجد ينفرط عقدهم سائلا فى إثر سائل ، هذا يجرّ عكازته ليتحامل عليها ويَظلع ، وذاك يحمل غرارته على كتفه ، وذلك يستدعى غلامه ليقوده . فقام « أبو المعاطى » يتمطى وهو يروض على السير أوصـــاله التى خدّرها طول القعـــود . . .

وتغلغل فى الطريق ، واخترق بعض الدورب ، فوافق سائلا ممن كانوا معه بباب المسجد يميط اللفائف التى شـــدّ بها يده إلى عنقه ، وينزع الضمادة التى أدارها على عينيه ، ثم ينفتل مستقيم العود ، صحيح الجسد ، يشق حجاب الظلام بعينين تلتمعان . . .

ونفذ « أبو المعاطى » من الدرب إلى الشارع ، وانتهت به قدماه إلى مطعم ممتاز ، فملأ بطنه ممـا اشتهى ، وقضى ليلته حيث قضى البارحة يهنأ بأعذب الأحلام ...

وفى رونق الصبح ، راع جماعة السائلين حيال باب المسجد أن « أبا المعاطى » قد شدّ يسراه بلفائف إلى عنقه ، وتوكأ على عكازة غليظة ، وهو يَدْرُج فى جهد وإعياء ... ثم انتهى إلى مكانه المختار فاحتله كسابق يومه ، وما كاد يستقر فى مجلسه ، حتى تعـالى

الحسيس حواليه ، وتزاحمت الهمهمة ، فتلفت فى خلسة فأبصر رفاقه يسددون إليه النظر وهم يتغامزون . ولم يطل به المقام حتى أخذت عينه قادماً من السائلين لم يره من قبل ، وهو شيخ منتفخ الجثة ، مترهل الأكتاف ، ذو لحية شمطاء ، يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويرتدى جبه تكاثرت فيها الرّقاع مختلفة الألوان ، وتتدلى على صدره سُبحة طويلة ذات حبات غِلاظ وجعل الشيخ يتهادى نحو « أبى المعاطى » فكلما دنا منه لمحتْ على وجهه سيماء الدهشة والحنَق. وما إن حاذاه حتى أخذ يصوّبُ فيه النظر ويصعده ، واشتدت همهمة الرفاق ، وتقاربوا نحو القادم الشيخ ، يحيونه تحية احترام وتلطف . وسمع « أبو المعاطى » ذلك الشيخ يسأله :

ما أتَى بك إلى هنا ؟

فأجابه :

أتيت أستريح بجوار بيت الله ، وضريح السيدة الطاهرة ...

ـــ هذا مكانى ... فكيف ساغ لك أن تقتحمه ؟

ـــ الساحة فسيحة لمن يريد الجلوس . . .

ـــ قلت لك هذا مكانى ، فعليك أن تتنحى عنه !

فنظر إليه « أبو المعاطى » نظرة متفرّس ، وقال فى شىء

من الازدراء :

ومن أنت حتى تطلبَ إلىّ أن أتنحى لك عن مكان أجلس فيـــه ؟!

ــ قلت لك هذا مكانى ، وقـد اتخذته لى مَثابة منذ خمسة أعوام ، إذ ورثته عن عمى ، فكيف ساغ لك أن تنتهز فرصة تغيبى لتحتله دونى ؟ ... وكان عليك قـــبل أن تنضم إلى الرفاق أن تستأذنى ...

أوَ حسبتنى مستجدياً مثلكم ؟ إنما أطلب الراحـة والتبرك بمجاورة الضريح المطهر ...

ــ خلّ عنك هذا الهراء ... لم يسبق لأحد أن يأخذ فى هذه الساحة مكاناً إلا إذا أجزته ، وعَينتُ له مجلسه لا يَعدوه ...

فلم يُبد « أبو المعاطى » حَراكا ، بل لبث يقلب فيه البصر ، فشعر بقدم الشيخ تركْله ، وهو يقول :

قلت لك تنحّ ، وإلا فالعاقبة وبالٌ عليك !

وفى هذه اللحظة برز من المسجد رجل ، فرمى بقطعة من النقود فى حِجر « أبى المعاطى » ، ومضى لِطِيّته ، فما كان من الشيخ إلا أن انقضّ على القطعة انقضاض الصقر ، ولم يشعر « أبو المعاطى » إلا وهو يثب على الشيخ ، ويشدّ على يده ، وينتزع قطعة النقود .

وفى لمح البرق ألفى نفسه مشتبكاً معه فى عراك عنيف ، واستمر الصدام وقتاً ، وهما يتواثبان ويتغالبان ، والرفاق حلقة حولهما يتفرجون . ومازال « أبو المعاطى » يستشعر يقظة السطوة تسرى فى أعضائه ، ونارَ الحميّة تتلظى فى قلبه ، وقد استحال كله أعصاباً نافرة ثائرة ، حتى وجد نفسه قد أخذ بخناق الشيخ وهو جاثم على صدره ، يَكيل له الضربات بجُمْع يديه . فتخاذل الشيخ ، وَنَدّت عنه صيحات الاستغاثة والاستنجاد ، فنظر « أبو المعاطى » وهو آخذ برقبة الشيخ إلى الرفاق حوله بعين متنمرة ، ووجه ينمّ عن الافتراس والحيرة . فتصاغر الرفاق ، وتداخلتهم الخشية ، ولم يجرؤ أحد منهم على أن ينتصر للشيخ العميد . فلمح « أبو المعاطى » فى هيئتهم معنى التّهيب له ، والرهبة منه ، فارتدّ إلى فريسته يقلب فيها النظر ، فاطمأن إلى أن الشيخ لم يعد بقادر على أن ينازله ، فتركه ملقى على الأرض ، وعاد إلى مكانه ، وجلس فيه جلسة التأمّر والتنفخ . وهو يسوى من ثيابه ، ويمسح التراب عن وجهه . وبعد قليل نهض الشيخ كسير الخاطر ، مستكين النفس ، وانتبذ ناحية قصيّة يأمن فيها جانب ذلك الشيطان العنيد ... وتنفس « أبو المعاطى » تنفس الارتياح ، وتلمس هِراوته ، فقرع بها الأرض فى نشوة ، وقد برقت على فمه

أن يتخذها للتعبير عما يجيش فى نفسه،خانته ولم تكن له عونًا ...

وأى سمع ؟ إن هو إلا سمعٌ ثقيل مضطرب ، لا يُنيله إلا أطراف الحديث منقوصة تزيده من حيرة وقلق ...

فأما كل ما أبقته له الكارثة من قدرة وسلطان ، فهو تلك الحشرجة المحتبسة التى يصعدها بين حين وحين ، حاملةً إلى عالم الأحياء رسالة الآلام والحسرات !

تَوقد نشاط « فتنة » وحميّتها فى خدمة البيت ، فاستخفى ذلك الشبح الركين الصموت المتقوس الظهر الذى كان يجرجر خطاه ، وظهر مكانه مارد فارع القامة ، جبار الخطوة ، سريع التنقل ، يقلب حواليه أنظار صقر مفترس ! .

أقبلت « فتنة » غداةَ الكارثة على حجرتها حيث اعتقلت زوجها ، فجلست عن كَثَب منه ، وشاع بينهما الصمت هنيهة ، وكان الرجل يبذُل جهده محدّقًا فى وجه « فتنة » كأنه يحاول أن يكتنه ما يحيط به من مظاهر ، وأن يستجلى ما تُكنه سريرة تلك الزوجة من مشاعر ...

وكانت تبدو على غضون وجهه مهانة الضراعة ، وذلة السؤال ، وكلما أمعن فى التحـــديق والتطلع إلى « فتنة » تشاغلتْ عنه ، وأشاحتْ بوجهها دونه ، فلا يملك إلا ترجيعَ الأنين ...

وبعد لأى نطقت المرأة تقول :

ربما عجبتَ : كيف لم نُحضر لك الطبيب ؟

وتخايلت على فمها ابتسامة نكراء ، وواصلت قولها :

وما نفعُ الطبيب يا سيدَ الرجال ؟ إنه لا يؤخر الأجل عن موعده ، داؤك واضح ، وأنا عارفة به ... أصيبت به أمى فلم يُمهلها أكثر من يومين ... يومين اثنين !

واختلجت عين الرجل ، وتشنج شِدْقاه ، وتابعت المرأة قولها كأنها تتحدث إليه حديثاً مألوفاً لا غُبار عليه :

وفيم العجب ؟ كلنا إلى الموت نصير ... لقد تبيّن لى أن حالتك كحالة أمى سواء بسواء .. وإن إخلاصى لك ليدعونى أن أصارحك بهذه الحقيقة ، حتى تتأهب لتلقى وجه الله !

وصمتت « فتنة » وقد تلهّب فى عينيها وميض ساطع ، ثم همهمت تقول :

ولكن لست أدرى بأىّ وجه تلقى الله ؟ وقد أسلفتَ فى دنياك هذه المخازى التى يتورع عنها الأبالسة والشياطين ... كنت تَحسَب أنك قادر على أمرك إلى الأبد ، وأن الدنيا تدين لك على الدوام ، فظللتَ تُصعّدو تصعد ، وتُمدّ لى إلى من هم دونك نظرات إصغار وازدراء ... حقّاً ما أعظم المرضَ من قاهر ، وما أقوى

الموتَ من مُذل!... ما برحتَ فى مهلة من عمرك للتوبة والاستغفار ، تطهيراً لنفسك ، واستدراكا لأمرك !... ولكن لا تحسبن أن الموت يمهلك أكثر من يومين ، مضى منهما بعض وقت !... إن أمى حَلت بها مثلُ كارثتك ... فى مثل الوقت الذى حلت بك فيه وقد ماتت فى مَبرِق الصبح ... وستموت أنت فى هذه الساعة عينها لا محالة !...

فندّت من صدر المريض زفرة مرتعشة ، وغارت فى وجهه الأخاديد ، وعالج أن يُحدّ من بصره الكابى ، فترجحتْ حدَقتاه ، كأنه فى اضطرابه وحيرته ، يتساءل

أيقظان هو يرى ويسمع ؟ أم نائم تتيه به الأحلام ؟ ... أهذه « فتنة » قبَالته تحدّثه؟ أم ذلك شيطان تشـــكل له فى صورتها وزيّها ، وجعل يَرُوعه بالمنكر من القول ؟

وفطنت المرأة إلى خوالجه ، فرفعت من صوتها ، وهى تتدانى إليه قائلة :

كل ما تسمعه وما تراه حقّ لا مَسحة للخيـال فيه ... إن زوجتك « فتنة » بلحمها وعظمها هى التى تتحدث إليك ... إنها امرأتك الوفية المخلصة التى صدَقتْ فى حبها إياك ، ووهبتكَ حياتها جمعاء ، فكافأتَها بأشنع الجحود وأقبح الجزاء ... لقد

أشركتَ بها فتاة حمقاء غريرة ليس فيها ما يغرى القلب أو يسرّ الناظر ... لا يتبادرْ إلى ذهنك أنى غيور ... وهل أحفل بتلك الحشرة الممقوتة فأحسب لها أىّ حساب؟ ... ماذا بها من ميزة تبعث غيرتى ؟ ... إنها عاطل من كل شىء ... شدّ ما سَقُم ذوقك ! ... لو كنتَ اصطفيتَ لك زوجة ذات حسن باهر ، أو سليلة بيت ماجد ، لالتمسنا لك المعاذير ، ولكنك لم تظفر إلا بِفُضالة مما تلفظ الأزقة والحارات ، فرفعتها بغفلتك إلى صفوف الزوجات الكرائم ... على نفسك جنيت ، وعليها أيضاً كنتَ جانياً !

وكان « عثمان أفندى » فى مرقده ، تزداد غضون وجهه ، واختلاجات عينيه ، على حين استأنفت المرأة تقول فى صوت أبحّ ، كأنه فحيح الأفاعى :

أنصَح لك أن تهدّىء من ثائرتك ، وأن تهوّن على نفسك ... لا يجدى عليك الحَنق فتيلا ، لا يطيل من أجلك كثيراً أو قليلا ... بل لعله يسرع بك إلى المصير المقسوم ، والقضاء المحتوم ... ولو متّ قبل الموعد المضروب لأفسدتَ علىّ التدبير ، ولزججتَ بى فى حَرَج وضيق ... لقد رتبتُ أمورى على أنك مُسلمٌ رُوحك مع الفجر ، فأوصيتُ باحتفار قبر جديد لم يطأه

جثمان ، وسنقيم لك على القبر بناء من المرمر المصقول ... فأما الجنازة فقد هيأتُ لها نظاماً سيكون غاية فى الروعة ... إنى امرأة تعرف الواجب للعشير ، وإن أنكر هو ما كان واجباً عليه ...

إن كان لى عيب فهو الإحسان لمن أساء إلى ... وعلى الرغم من كل هذا أراك ممعناً فى طيشك ... أراك تُغمض من عينيك ، كأنك تأبى الاستماع لما أقول ... ولكنك تنسى أنك لا تسمع بعينيك ، فإن لك أذنين ضخمتين تلتقطان أخفَى الهمسات !

واندفعتْ كالسيل تتم قولها والرجل مطبق أجفانه ، يتجرع تلك السموم التى تَنفثها تلك المرأة جملا وكلمات ...

وما زالتْ المرأة تقول ، حتى بَحّ صوتهـــا ، وجف حلقها ، فنهضت إلى القلة تكرع منها ، ثم رجعت بها إلى الرجل ، ووضعت حافتها على شفتيه ، فما إن أحس نداوة الفَخار حتى انفرجت شفتاه ، وهو على حاله مغمض العين ، فصبت المرأة فى فمه جُرُعات قلائل ، وهى تعينه على أن يُسيغها فى غير عناء ... وكانت تردّد :

لا تظنني أسيء معاملتك ، وأنت فى هذه الحالة ... سأقيم على خدمتك حتى الرمق الأخير ، أعنى حتى مطلع الفجر ! ...

وانصرفت عن الحجرة وقتاً ، ثم قفلت إليها تحمل صحفة فيها حساء ، فقرّبتها من الرجل ، وانحنت عليه تسقيه بالملعقة فى رعاية

كأنها تطعم طفلا قريب عهد بالفطام ...

ولما فرغتْ من إشرابه الحساء، أقبلت عليه تمسح فمه، وتعنى بترجيل شعره، وتنظيم فراشه، ثم همهمت تقول:

لعمرى إن موتك ليشقّ علىّ ... مهما يكن من أمر، فما أقسى ساعة الوداع بين اثنين جمعت بينهما المعاشرة جنبا إلى جنب، فترة من الزمن!

كذلك كان شأن «فتنة» مع «عثمان أفندى» وهو طريح سريره. أسيرُ علته. أما شأنها مع «بهية» فقد دخلت عليها فى حجرتها، وأبلغتها فى صرامة ألا تبرَحَ الحجرة: وألا تصْدُرَ منها نأمة أو صيحة، وإلا كانت العقبى أوخم ما تكون ...

ثم ألقت عليها نظرة ذابت من حرارتها أعصاب «بهية» فلم تملك ردا، وما هى إلا أن غادرت «فتنة» حجرة ضرتها، وأحكمت إغلاق بابها بالمفتاح ...

ولبثت «بهية» فى الحجرة طول النهار، حبيسة، موزعة الخواطر، تشردها الهواجس كل مشرّد، ولكنها لم تجد سبيلا إلى غير الطوع والإذعان ...

لبثت فى مَحْبَسها تلك الساعات الطوال ترهف السمع، فلا يتناهى إلى أذنها إلا خفق أقدام «فتنة» يحمل إليها الرهبة والفزع ...

ومتى انقطع خفقُ هذه الأقدام رزح فى الحجرة صمت ثقيل يخمد الأنفاس ...

وما كاد ضوء الأصيل ينهزم فى معركة الليل المقتحم ، حتى ضاقت « بهية » ذَرعـًا بما تجد من ظلمة وإيحاش ؛ واستشعرتْ ثورة مباغتة، فشرعت تطرق الباب فى إصرار. فما هى إلا أن قدِمت « فتنة » فدخلت من الباب كالإعصار ، ووقفت قبالتها تردد فى صوت مختنق :

ما هذه الجِنَّـة ؟ ألا تشفقين على المريض ؟

وألقت على « بهية » نظرات سراعـًا ، ففطنت إلى أنها تتحيل للهرب والانفلات ، فأمسكت بها تنهال عليها لطمـًا ولكمـًا ، حتى أوشكت أن تسلبها الحياة ...

ثم وقفت تنظر إلى « بهية » وهى مصروعة تحت قدميها ، كما تنظر النمرة الضارية إلى فريستها بين المخالب ... وانبرت تقول :

يظهر أن الله قد كتب علىّ الشقاء فى دنياى ... حتى لقد أراد لى فى آخرة عمرى أن أتولى تهذيب أمثالك من حُثالة الأشرار والأوغاد ... أعلىّ اليوم أن أصلح منك ما أفسدته السنون ؟ لا بأس ... إنى حَمول صبور ، وسأضطلع بهـــذه المهمة ، لا آلو جهداً ...

وخرجت « فتنة » من الحجرة ، فأحكمت إغلاق بابها كما كان . . .

وجن الليل يضرب رواقه على هذه الدار ، حاملا فى تضاعيفه ثقال الهموم وعظائم الأسرار . . .

وأبت « فتنة » أن تضىء حجرات الدار أى مصبـــاح ، فلم يخدش حندسَ الليل فيها إلا فلول مهزولة من أضواء الطريق . . . وازدادت الظلمة وَحشة ورهبة بما ران عليها من صمت عميم !

ولذ « لفتنة » أن تجوس خلال الدار ، تخترق ذلك السَّجف المتكاثف من الصمت والظلام ؛ كأنها شيطان مَرِيد يهيمن فى كهفه على روحين سجينين !

وأخيراً شاءت إرادة « فتنة » أن توقد شمعة على رأس زوجها المريض ، زاعمة له أنها تريد إمتاعه ببصيص من النور ، قبل أن يُحرمَ فى مطلع الفجر نورَ الحيـــاة ، ليستقبل إلى الأبد ظلمةَ القبر ! . . .

وعلى الرغم من ذلك السكون المطبق ، كان كل شىء فى كهف الشيطان يشعر بتيار خفىّ من اليقظة والانتباه . . .

يا لهذا الليل العجيب فى ذلك الكهف الأسود !

لم يعد ليل نوم وراحة وسكون ، ولم يعد مَثابة اطراح للهموم ،

ونسيان للمتاعب ...

إنه الساعة ليل تحوم فى جوانبه الذكريات الأليمة ؛ كأنها الخفافيش تدف بأجنحتها مذعورة غضبى ...

وما زالت تلك الخفافيش تتنقل فى حجرات الدار ، حتى بلغت مأوى « بهية » فى ركن من أركان المحبس ، فما إن أحدقت بها تضرب رأسها فى شدة ، حتى هبت « بهية » تطلق من حلقها صرخة مكروبة ، تتبعها صرخات ، لا تدرى أهى تأوه وتوجع ؟ أم استغاثة وتضرع ؟ ...

واندفعت فى بكاء وإعوال ، فبلغ عويلها سمع عابر سبيل ، فوقف يتطلع إلى نوافذ الدار هنيهة ، ثم تنهد ، ومضى فى طريقه يردد :

الدوام لله يا « عثمان أفندى » !

وأقبلت « فتنة » على حجرة « بهية » مهتاجة مُحنَقة ، فما إن لمحت « بهية » شبحها ، حتى هجمت عليها هجمة مستبسل مستيئس ، وما أسرع أن التحم الخصمان ، ولج بهما التطاعن والتقاتُل فى صمت لا يقطعه إلا هرير الأنفاس ...

وانجلت المعركة عن « بهية » موثقة مكممة الفم ملقاة على الأرض تتلوى فى جهد وإعياء ... وأما « فتنة » فواقفة مجنّحة

الذراعين ، يتفصد وجهها عرقا ... وبعد قليل شرعت تقول متلاحقة الأنفاس :

لعنك الله من شيطان فى ثوب إنسان ... شدما كنتُ مخدوعة بك ، وحقا لقد استطعتِ أنت فى هذه الفترة الماضية أن تخفى عنا ما انطوت عليه نفسك من أذية وشر ... ما كان أمهرك فى الظهور بمظهر المسالم الوديع ، ولكن ها قد بَرِح الخفاء ، وانكشف الغطاء ، فلم يكن بد من أن آخذك بالشدة ... ولستُ ألام على ما أفعل ، فالشر لا يُحسَمُ إلا بشر ...

وتركت « فتنة » الحجرة . واستعادت الدار ما كان فيها من وحشة الصمت الثقيل . واستأنفت خفافيش الذكريات سعيها فى جوانب الدار تضرب الرءوس بأجنحتها الشداد ...

وكان الليل يسرى ... يحس السجينان — « عثمان أفندى » و « بهية » — سُراه بطيئًا بطيئًا ، كأن دقائق الوقت تئودها القيود والأصفاد ، بل إنهما ليشعران بأن الزمن يدركه الإعياء ، فيقف بين الحين والحين جامداً فاقدَ الحراك ... على حين تشعر « فتنة » بأن الوقت يمضى قُدُماً ، كأنما يقطع مراحل الليل وَثْبا ، فتعجب لسرعته ، وتخشى أن يفوتها تحقيق ما اعتزمت من أمر ، فى مطلع الفجر ... فى تلك الساعة المرهوبة التى تراها مَفصِلاً

بين حياة وموت !

ذلك كان شعور أهل الدار نحو الزمن فى سيره ، والزمن منطلق لطيته ، يُلقى على هذا الكهف العجيب ظلالَ ابتسامته الخالدة ، تحمل فى تضاعيفها السخرية والاستهزاء !

وكان المريض قد أخذته سِنَة من النوم ، فأنبهته حركة طارئة فاجتهد على بصيص الشمعة المتخاذل أن يتبين ما طرأ ، فطالعه مشهد انخلع له جَنانه ، إذ رأى « فتنة » تدخـــل الحجرة وهى تجرجر جُسماناً موثقاً يَنِدّ عنه أنين خافت ، وما لبثت أن ألقت بالجسمان على مقعد قُبالةَ مرقد المريض ...

وعالج « عثمان أفندى » أن يُحدّ بصره ، حتى لكأن حدقتيه تهمّان بالانفكاك عن مَحْجِرَيْهما ، ثم شق عليه ما يرى ، فما عتم أن أطبق جفنيه من جَزَع ...

ووقفت « فتنة » وسط الحجرة ، وقد وضعت يديهـــا فى خصرها ، وبدت مرفوعة الهامة ، براقة النظرات ، مربدّة الوجه منفوشة الشعر ، تتخايل عليها الظلال متراقصة خلف بصيص الشمعة الخابيـــة ...

يا لَه من شبح راعب مفزّع !

لكأنه كائن من عالم بعيد ، لا يَمُتّ بصلة إلى ظهر الأرض ،

عالم الخوارق والطلاسم والأساطير !...

وإن المريض ليرتعش جفناه ، فتنفذ منهما نظرة إلى ذلك المشهد ، فسرعان ما يخيّل إليه أنه قد انتقل هو وزوجتاه إلى الدار الآخرة ، وأن المكان الذى يحتويهم الآن ليس هو إلا ركنا من أركان جهنم يتلقون فيه عسير الحساب ، وأليم العذاب !

وعلى حين فجأة ، ارتفع صوت « فتنة » قائلا :

الفجر يتدانى والموت يقترب ... وإنى امرأة أعرف ما يليق ؛ ولا أقصر فى أداء واجب ... وكان حقيقاً بى أن أجمع بينك يا « عثمان أفندى » وبين زوجتك الأخرى فى ساعة الوداع .. ثق أن ضلوعى لا تنحنى على ضغن . وإنما أنا مخلصة صافية غاية الإخلاص والصفاء . وليس الذى يبدو من حدّتى وعنفى إلا عارضًا على الرغم منى ، فأنتما تضطرانى إلى ذلك أشد الاضطرار ... هذه « بهية » أمامك يا « عثمان أفندى » فتملَّ مرآها ، وتمتع من رّياها ، ولتغتنم هى أيضًا هذه الفرصة فتشاركك فى التملى والتمتع ، ولكن إياكما أن تنسيا التكفير عن خطاياكما ، والاستغفار من ذنوبكما ، من سوء معاملتكما لإنسانة لم تنلكما بأذّية ، ولم تُردْ بكما أى ضر !

وصمتت المرأة لحظات ، ثم استأنفت تقول ، وقد بدأ صوتها

تشيع فيه نبرات من التحسّر والتحزن :

ماذا كان مني يا « عثمان أفندى » حتى تجزيني جزاءك القاسى ؟ ألم تذق على يدى شَهْدَ السعادة حلواً مصفى ؟ اذكر سوالفَ أيامى معك ، ووازن بينها وبين حياتك من قبل ، فإنك واجد أنى كنت لك يُمنا وبركة ... أفى طوقك أن تنكر حبى إياك حبا ليس وراءه مطمع لمستزيد ؟ وهل كان فى مستطاع امرأة أن تحبك فوق ما أحببتك ، وأن تكون بك متلطفة كما تلطفتُ بك ؟ لا تخدعَنك الظواهر المزورّة ، والكلمات المعسولة ، من تلك التى ضمنتَها إليك ، فأنت أعقل من أن تجوز عليك مثلُ هذه الأخاديع !

وهنا أخذ صوتها يرق ويتحنن وتنتابه رعشة ، وإذا هى تقول :

مهما يكن من أمر فإنى لك مسامحة ، وكذلك سامحتُك أنتِ أيضا يا « بهية » ... ليس لى إلا أن أوثرَ العفو فى هذه الساعة المرهوبة التى تقترب فيها طلائع الموت ... ليس لنا جميعا فى هذه الساعة يا « عثمان أفندى » إلا المودّة والتصافى ... ليس لنا إلا إسبال الستر على ما كان ... فى هذا الوقت الفاصل أجاهرُك فى غير خجل ولا حياء ، أمام ضرتى ، بأنى ما زلتُ أحبك ... هذا حق ... فما برح حبى إياك يغمُرُ جوانحى ! ...

وشرقتْ « فتنة » بدمعها ، فإذا بها ، على حين فجأة ، تهبط

على حافة السرير ، وترفع الصمام عن عاطفتها المكبوتة ،فاستبدت بها نوبة جياشة من البكاء ، وقد دستْ وجهها فى ثنايا الفراش ، ويداها متشبثتان بحواشيه ...

وأخيراً رفعت « فتنة » رأسها ، وقد ذكرتْ شيئاً أثارها ، فتلفتت جزعة تهمهم :

يا لله ! ... يا لله ! ... شدّما يهمل الإنسان واجبه فى سبيل عاطفته ... ولكن الزمن لا يعرفُ للعاطفة معنى .

ونهضت صُلبةَ القامة ، خفيفة الحركة ، وقد أحستْ كأن أثقالا كانت تنوءُ بها قد وُضعتْ عنها. وما أسرع أن كفكفت عبراتها ، وستبان على محيّاها إشراق ...

ووقع بصرها على الكُومة المطروحة على المقعد ، فقصدتْ قصدَها ، وشرعت تحُلّ وَثاقَها ، وتنزع الكمامةَ عن فمها ، وهى تهينم :

ليس الوقتُ يا « بهية » وقتَ حقد وانتقام ... نحن الآن على عتبه الموت ، فلنغسل أوضار الماضى ، ونعدّ أنفسنا لمرضاة الله ... هنالك فى العالم الآخر سنحيا ثلاثَ نساء فى عصمة زوج واحد ... هذه إرادةُ الله .. ولكننا سنحيا حياة هانئة :لأن الدار الآخرة لا مكروهَ فيها ولا هوان ! ...

وأضحت « بهية » طليقة لا قيد ولا وثاق ... ولكنها ظلت على مقعدها بلا حراك ... أسمعت قول « فتنة » ووعته ؟ أم لم تملكْ له سمعاً ؟ أفي غيبوبة هي ؟ أم دهاها شيء أخرجها من عداد الأحياء ؟

والتفتت « فتنة » إلى « عثمان أفندى » وهي تقترب من فراشه وتقول :

ستجمع بين ثلاث زوجات ، ولكنك لن تعرفَ إلا العدلَ بينهن ، فتكفلَ لهن جميعاً عيشة رغيدة ؟

وانحنت عليه تحتضنه وتقبله ، ثم فارقته فى ثبات وسكينة إلى النافذة ، ففتحتها . فآنستْ لمحات السَّحَر تضيء الأفق ، فأغلقت النافذة واتجهتْ إلى عُقب الشمعة الهزيلة ، فتناولته بين أصابعها ، وألقت به على صُرّة من متاع كانت عن كثَب من فراش الزوج ... وما أسرع أن اندلعتْ ألسنة اللهب !

وانثنت « فتنة » إلى مرآة على منضدة الزينة ، فجعلت على ضوء اللهب المتوهج تمشط شعرها ، وتصففه ، وتُعطّريه بالدهان ، وتستكمل زينتها بالتكحل والتعطر ...

وبلغتْ من ذلك مأربَها على عجل ، وخطتْ إلى الباب ركينة القدمين ، وعيناها تتيهُ نظراتها كأنهما تجوسان خلال

أُفق بعيد ...

وبلغتْ الباب ، فأخذت بمصراعه ، تفتحه ، وأشارتْ بيدها كأنها تأذَنُ لطارئ بالدخول ...

وعادت إلى جانب السرير تجلس على الأرض ، وقد توغلت النار تأتى على الفراش ، والمرأة تحدق أمامها ذلك التحديق التائه ، وقد تخايلتْ على فمها بَسمة عجيبة ، لاتدرى : أبَسمة روح من الملائك هى ؟ أم بسمةُ شيطان مَريد ؟ .

وكانت شفتاها تختلجان بهذيان غير مُبين ! ...

ابتسامة خبيثة ، وأخذ يرمق جمع الرفاق بعـــين ملؤها السيطرة والاستطالة. وتفرق الجمع فى سكون، كل يسعى إلى زكنه المختار...

وعجب «أبو المعاطى» من نفسه : كيف استطاع أن يُذلّ هذا الطاغية ، وأن يقهر ذلك البنيـــان الشامخ ، وأن يجعل رأسه فى مواطىء الأقدام ؟ ولكنه تذكّر أطراف حوادث وقعت له فى الحقل ، فمرة كبح جماح ثور أفلت من محراثه ، ومرة أدار ساقية ثقيلة بقوة عَضدَيه . . . واتسعت ابتسامته ، حتى أضاءت جوانب محيّاه ، ولم يطل به المقام حتى أحس قدمين تبدوان عن كثب منه، فطأطأ رأسه ، وقاص قسمات وجهه كالضارع المتألم ، وتمتم بألفاظ حبيسة . فسقطت قطعة النقود فى كفه ، فأودعها من فوْره جيبه ، واستأنف تمتمته آمنا . . .

وفى غداة اليوم التالى ، هبّ «أبو المعاطى» من نومه مبكرا، وعَجِلَ إلى مكانه من المسجد ، فما إن أشرف عليه من بعيد حتى لاحت له العمامة الخضراء تحتل موضعه المكين ، فاندفع مهرولا وقد شد على هراوته ، وإذْ قارب المكان وجد شيخ أمس متمكنا فى جلسته ، تحيط به شِرْذمة من أتباعه ، فاتجه «أبو المعاطى» إليه صامتاً ، وما شعر إلا أن امتدت يده فى قساوة وغلظة تأخذ بتلابيب الشيخ وتقصيه عن مكانه . ولكنه لم يكد يفعل ، حتى

رأى الأتباع يتألبون عليه ، ويتقسمونه ضربا وجيعا ، ولكما شديدا ، فأحس ثقل الوطأة عليه ، وتوقع الهزيمة توشك أن تحل به ، ولمعت فى مخيلته حسنات النقود وهى تنهمر على حجره ، وتمثلت لخياشيمه روائح الشواء يطعمه شهيا ، فإذا الهراوة تستيقظ فى يده غضبى . وفى خطفة البرق راح يخبط بها فى الجمع خبط عشواء ، مشمراً فى متابعة الضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فما هو إلا أن تقوض الجمع عنه ، وولوا فراراً منه ، غير مصيخين إلى نداء الشيخ واستغاثته . وتقدم قزم من الأتباع الذين لم يكن لهم فى المعركة نصيب ، فتقرب من «أبى المعاطى» وتشبث بثيابه ، وهو يصيح :

فليحمك الله ... ليس للأمر إلا أنت ! ...

وهنا تعالت صيحات تؤيد قول القزم ، وأبصر «أبو المعاطى» الصائحين يتدانون منه ، ويتلطفون به ، وينفضون الغبار عن جلبابه . فعاد «أبو المعاطى» يتخطر فى خطوات وئيدة إلى مكانه المعهود ، واقتعده مزهواً منتفخ الصدر . . . فأما ذو العمامة الخضراء ، فقد كان يرتد إلى الناحية القصية التى لاذ بها أمس ، وارتمى فيها متكوراً ينكمش بعضه فى بعض ! ...

وفى اليوم التالى ، تجلّى « أبو المعاطى » قُبالةَ المسجد وهو يضع على رأسه العمامة الخضراء الضخمة ، ويرتدى الجبةَ المتكاثرة الرقاع ، المختلفة الألوان . وعلى صدره السُّبحةُ ذاتُ الحبات المائة الغلاظ وقد التف حوله الأتباع يحيونه تحيةَ التودّد والإكبار ... ثم جعل يتهادى فى مشيته ، حتى وصل إلى مقعده الظليل ، فاطمأن فيه ...

وطاف برأس « الشيخ أبى المعاطى » طيفُ والده ، وهو يسائله عما فعل ، وعما ادخر من النقود . فشعر بالهِراوة تتحرك بين أنامله ، فدقّ بها الأرض بضع . دقات وقد كشر عن أنيابه . وانبعثت من حَلقه قهقهةٌ شيطانية ساخرة ! ...

زوج وضرتان

كان « عثمان أفندى » رجلا وثيق الأركان ، أمْيلَ إلى البدانة، محتقن الوجه من أثر الشراب ، ولكنه حسن الصورة ، أنيق البزة ذو شارب مسنون . وعلى الرغم من أنه ذَرَّف على الستين ، فقد سلمتْ أساريره من عَبث السنين ، إلا ما تلمحه من تلك الرَّعْشة التى تنتظم يده حين يمدّها إلى الكأس ، أو يشير بها للتحية .

وقد أَلِفَ الناس أن يروا « عثمان أفندى » مُسلَّم الأوصال، فلم يكن يدور فى أخلادهم أنه يقع يومًا فى إسار المرض . فلا غَرْو أن تسرع إليهم الدهشة حين ترامىَ إليهم أن الرجل أصابه الفالج بغتة ، وأنه نال منه أبلغ منال ، حتى لقد أشفىَ على هُلك وشيك ، وكأن الموت مطوِّف ببابه ، يهم بأن يطرقه ...

عجب الناس أشد العجب مما سمعوا ، فإنه ليَقر فى أذهانهم أن الموت يهادن أمثال ذلك الرجل المتين المهيب ، فكانوا إذا مرّ أحدهم بداره ، همهم قائلا :

الدَّوامُ لله !

كان « عثمان أفندى » يقيم مع زوجتيه فى داره التى يملكها

فى حىّ « السيدة زينب » ... وقد رضيت زوجتاه أن تضمهما دار واحدة فى طاعة ذلك السيد المهيمن . ولم يكن أحد يرتاب فى أنّ السعادة ضاربة على الدار رُوَاقها ، وأن أهلها يحيوْن فى أمن ونُعمىَ ، فبذلك كانت تجرى أحاديث الخلق ...

وإذا كان لكل شىء آفة ، فإن الآفة التى أصابت « عثمان أفندى » أنه لم يُرْزق بالذرّية ، فظل فى الحياة فرداً ...

وقد أنعم الله على الرجل بدخل كريم سوّغ له أن يعيش مرَفَّها طيب المأكل والمشرب ...

ومهما يكن من صلابة الرجل فيما يرى ، وعناده فيما يريد ، فقد طبع على سخاوة الكف ، وكرم البذل ، لا يألو جهدا فى تنعيم زوجتيه وإقرار أعينهما بما تشتهيان من متاع .

وإحدى زوجتيه تدعى « فتنة » قطعت فى طريق الحياة نصف قرن ، واستأنفت السير لا يظهر عليها إعياء ... وهى فارعة القامة عجفاء ، قوية العضلات ، تستبين وعورة أخلاقها فيما تبعثه عينها من نظرات نفاذة عنيفة ، وفيما يرتسم على وجهها من قسمات جهمة قاسية ...

كانت فى شبابها ذات حظ من ملاحة ، لبقةً بالتخطر والتثنى ، بصيرة بتصويب النظرات من جفن مكحول ، يدفعها المرح إلى

فنون من التدلل المطوى على إغراء ...

فما كاد « عثمان أفندى » يتعرف إليها حتى استجابت لها نفسه ، وهفا فؤاده ، وما هى إلا أن تم بينهما زواج ، فوهبته هى قلبها أجمع ، وفنيت فى حبه : فنعم فى صحبتها بعيش صفاء وهناء .

بَيْدَ أن الدهر كما يقولون قُلَّب ، لا تدوم له حال ، فبعد أن اشتف « عثمان أفندى » عصارة الحسن من « فتنة » واستمتع بما لها من شباب غض ، لوى رأسه عنها ، حين أحس أنها تخطت عصر التفتح والازدهار ، ولم يبق لديها ما تمنح من عطر الزهرة الفواح ، ونضرتها البهيجة ...

مضى « عثمان أفندى » يتطلع إلى زهرة جديدة فوقع اختياره على « بهية » ... وهى فتاة فى رَيِّق الشباب ، وربيع الحسن ، فتزوجها ، وحملها إلى داره ، ولكنه أبقى مكانة الصّدر لزوجه الأولى .

ولكن ما نَفَعَ « فتنة » بأن تكون صدر الدار ، وأن يكون لها المقام الأول ، وهى تحس بأنها شوركت فى رجلها ، وفقدت قلبه ، بعد أن أفنت أكرم عمرها وفاء لزوج لم يُؤْثِر الوفاء !

ولقد راب « فتنة » من جديد أمرها أنها قد استشعرت عاطفة غريبة لا تفتأ تنمو ، وإنها لتزداد على الأيام من تضرّم

واتقاد ... أهي عاطفة ذلك الحب الأصيل يريد أن يظل المالكَ المسيطر ؟ ... أم هي عاطفة حقـــد مكين ينزع إلى التشفى والقِصاص ؟... أم هي مزاج من عاطفتين متنـــاقضتين من مقت وتعلق ، اتخذ من سريرة « فتنة » مسرحاً للتقاتل والصراع ؟! ...

لم تلبث « فتنة » حين شوركت فى رجلها أن بدأت فى الحيـاة عهداً جديداً لم يكن لها به عهد ، عهداً تقاسى فيه ذلك الشعور الثائر الحائر الذى لا يفترُ عنها فى صحو ، ولا يُشفق عليها فى أحلام ...

إن « فتنة » لتذكر أنها لما آنست نذُرَ هذه العاصفة ، وفطنت إلى أن قلب زوجها أخذ يَتشرّه إلى شيء جديد ، لم تدخر وُسعاً فى سبيل الاحتفاظ بذلك الزوج ، وثنيه عن عزمه ، فابتغت كل الوسائل من رعاية وتحنن تارة ، ومن توعد وتهدد تارة أخرى ، فما أجدتْ وسائلها فى التأثير . وكيف لها أن تطمع فى إذعان « عثمان أفندى » لإرادتها ، وهى التى ما إن يقع بصرها على شاربه المسنون يتراقص ثائراً على شفتيه ، كما يتراقص شارب الأسد إذا تهيأ للوثب والانقضاض ، حتى ترى نفسها قد عاجلتها استكانة واستسلام ؟! ...

وأكبر ما آلم « فتنة » وأوغر صدرها أن زوجها لم يكتف باتخاذ ضرة لها ، وإنما أضاف إلى ذلك أنه أسكن تلك العدوة معها ، يظلهما سقف واحد ، غير متورع عما يلحقها فى ذلك من بالغ الأذى ...

أما الرجل فإنه فى الحق ما تعمد زوجه الأولى بإهانة ، ولا ارضى لها المذلة ، ولا أحس بأنه يأثم فى هذا الصنيع ، وإنما كان عميق الإيمان بأن الجمع بين الزوجتين أمر لا تأباه سنة الحياة ، ولا تنكره شريعة الله !

وما له يجشم طاقته فتح بيتين ، ويقسم نفسه فى مكانين ؟ إن زوجتيه كلتيهما بعض أسرته ، ومن خير الأسرة أن تكون فى كنف عائلها مجتمعة ، وبظله محتمية ...

وما لزوجه الأولى تجحد جميله فيما اتخذ من خطة . ولا تقر بفضله فيما آثر من عمل ؟ لقد كان فى مكنته أن يلقى عليها كلمة الطلاق ، وأن يفسح البيت كله لزوجه الجديدة لا يشركها فيه شريك ، ولكنه استنكف أن يفعل ذلك ، وفاء لماضيها معه ، وعرفانا لحقها عليه . وأبت نفسه إلا أن يوفر لها الكرامة ، ويقر لها بالصدارة ، فأبقى عليها سيدة بيته الأولى ...

وما كان لشيء ألا يتم وفق إرادة « عثمان أفندى » ، فقد

ائتلفت أسرته الصغيرة تحت جناحـــه ، وجرت الأمور فى أعنتها كما يهوى ؛ ورفرف الأمن والسلام على بيت الرجل ، حتى تناقل الناس حديث تلك الأسرة التى تُعدّ طرازاً فريداً للصفاء والرّفاء ..

توخت « فتنة » فى العيش مسلكاً حميداً لم تر عنه مَحيدا ، ذلك هو إحسان المعاملة لضرتها « بهية » ، وقد أعانها على ذلك أن « بهية » كانت فتاة خاملة النفس ، خوّارة العزم ، أجْنحَ ما تكون إلى السكينة ، أجفى ما تكون للنزاع ، وكانت أعصابها متراخية ، وبنيتها متداعية ، على الرغم مما تكتسى به من سمانة وامتــــلاء ...

اطمأنت « بهية » بما لها من مكانة فى قلب الزوج ، وآنستْ أنها مطمح عينيه ، ومألف روحه ، فماذا وراء ذلك يدفعها إلى التطلع ؟ إنهـــا لتنزل طيّبة الخاطر عن إدارة البيت ، ورعاية شئونه ، للزوجة الأولى « فتنة » ، وفى ذلك إعفاء لهــا من مشقة العمل ، وكلفة التدبير ، فتفرُغ بنفسها لقلب زوجها تُفيء عليه المتعة والإيناس ...

ولعل « فتنة » كانت تحاول أن تتناسى ذلك المثل السائر :

لا جديد تحت الشمس !

والتاريخ يعيد نفسه !

أليس الذى حدث اليوم إنما هو تكرار لما حدث معها بالأمس ؟

بدأ « عثمان أفندى » حياته زوجاً لامرأة لم يكد شبابها يولى حتى وقع بصره على « فتنة » فى صباها النضر ، فهام بها وأضافها زوجا ثانية ، فأذعنت تلك الزوجة الأولى لما كان ؛ كما تذعن « فتنة » الآن ... ولكن تلك الزوجة الأولى عاجلتها المنية ، فانتشلتها من جحيم الغيرة الخرساء ، وخلا « لفتنة » وجه الطريق ! ...

لا تستطيع « فتنة » أن تنسى تلك المأساة ، وكلما ساءلت نفسها :

أيكون لها مثل ذلك المصير المشئوم ؟

أحست وقدة الحمى فى دمها ؛ من أين لها أن تطيق ترادف الأيام تسقيها السم الكريه قطرات ؟ ! ...

لبثت تفكر . وما فتئت تفكر ، دون أن تهتدى إلى ما يريح فؤادها من ذلك العذاب ... ولكنها ملكت أن تكبت شعورها بما أوتيت من صلابة الطبع ، وجرت قافلة البيت فى جو ظاهره الهدوء ، فأيقن « عثمان أفندى » وهو يطوى أيامه بين زوجتيه ،

أنه قد فرغ من مشكلة الضرتين ، وانتصر برجولته على تلك الصغائر التى تثيرها غيرة النساء !

وكان عزيزاً على « عثمان أفندى » وهو المؤمن بسطوته ، المعتز بهيمنته ، أن يشق بالنظر النافذ ذلك السطح الناعم الأملس الذى يغشى بيته ؛ ليستجلى تلك التيارات المتدافعة تعلو وتهبط لا يَقَرُّ لها قرار ، فحسبه ما يراه حوله من شيوع الأمن واستتباب النظام ! ...

لم يُمنَ الرجل بما كان من ذلك الانقلاب السلبى الذى لحق بزوجه « فتنة » ؛ ذلك الانقلاب الذى جعل من تلك المِمراح الطروب امرأة رزينة صَمُوتاً صارمة القسمات ...

لقد هُزل وجهها ، فازداد طولا ، وضَمُرَ عودها فتقوس ظهرها ، وأصبحت تمشى مَحْنية كأن برجلها قيداً ...

لقد انطوت على نفسها تحتضن حقدها الواغل ، وتتعهده بالرعاية والصون ؛ كأنها تخشى عليه أن يذهب هباء .

لقد آثرتْ أن تحيا فى توحد وانفراد بجوار نافذة حجرتها المطلة على الطريق ، فهى تلبث الساعة بعد الساعة مدْلية بأنظارها فى سهوم ؛ وما كان بصرها فى الحق يقيِّد شيئاً مما تراه العيون ، فإن عينيها كانتا مصروفتين إلى تصفح مشاهد أخرى من حياة

ضرتها الأثيرة عنـــد الزوج ، وما تجده تلك الضرة الرخوة المكسال من حُظوَة وقبول ...

وما كانت « فتنة » تقنع بما تعيه ذاكرتها من حقائق تلك المشاهد فى حياة البيت ، تلك المشاهد التى كانت تتراءى فيها « بهية » مكرّمة منعمة ... وإنما كانت « فتنة » تستعين الوهم والخيال ، فتبتدع الأحداث ، وتؤلف الصور ، وكلما أوغلت فى التوهم والتخيل لجت بها الرغبة ، واشتد الظمأ ؛ كأنما هى النار ، إذا ما زيدت وقوداً ازدادت من تسعر واضطرام ...

لقد كان يَـلـَذّ « لفتنة » أن ترقب « بهية » فى دقائق حياتها ، وما لها من غَـدَوات ورَوْحات ، فما كان يغيب عن ملاحظتها شىء مما تفعل ، ولا سيما حين يَقدَم الزوج فى مواعيد أوبته إلى البيت ، واستقراره فيه ؛ إذ كانت « بهية » تأخذ زينتها ما وسعها أن تأخذ ، ولا تفتأ دانية من الباب ، تأهباً للاستقبال ، تلقى السمع إلى خفق أقدام السابلة فى يقظة وتنبه ... فإذا رنت خطا الزوج المنتظر ، تلك الخطا الثابتة المصحوبة بقرع العصا ذات المقبض العاجى ، شوهدت « بهية » قد تورد محياها ؛ وافتر ثغرها ، وأمسكت بمصراع الباب تفتحه للقادم الحبيب ؛ فما تكاد عين الرجل تقع عليها ؛ حتى يتهلل ويتطلق ؛ ولا يُـعَـتِّم أن يتلقى

« بهية » بين ذراعيه ، وماهى إلا أن تغشاهما موجة من المداعبات والمفاكهات وفضول الأحاديث ! ..

ذلك كله كانت تحرص « فتنة » على أن تراه من خَصَاص الباب ، وأنفاسها تتواثب ، وأوصالها تنتفض ، على حين تستمرئ تلك النشوة الغريبة ، نشوة إمداد حقدها الكمين بأسباب الغــذاء والنماء ...

وكم من مشاهد على هذا الغِرار ، أبت « فتنة » إلا أن تستمتع بمرآها ؛ لتذكى بها ما بين جنبيها من بغضاء ...

وكان الليــل يَفِد على « فتنة » أقسى ما يكون همًّا وويلا ، ذلك الليــل الذى هو ميلاد المحبين ، ومثابة المتعة والإيناس ... إن « فتنة » لتقضيه ساهدة يقظى ، يتلذع فؤادها على مثل الجمر ، لا يرحمها القلق لحظة ، فهى حيرى تارة تذْرع حجرتها فى اهتياج ، وتارة تخف إلى باب حجرة زوجها تتسمع وتترقب ... وكانت تجيش بين أحنائها رغبة جامحة ملحاح ، هى أن تقتحم الباب ، فتنتزع تلك المرأة الرخوة المكسال من بين أحضان الزوج ، ثم تسقط عليه فتطوقه بذراعيها العنيفتين ، وتُنحى عليه تقبيلا كأنه نهش الأفاعى ، حتى لا تُبقى فيه على أثارة من أنفاس ! ...

تلك هي دخيلة ما كان يجري في بيت « عثمان أفندي » ، بيته الهادىء الوادع الذي يحتوي أسرة يحسب الناس أنها تخفق عليها راية الأمان ، وتشيع بينها علائم المودة والصفاء ! ...

وحان اليوم الذي حُمل فيه « عثمان أفندي » إلى البيت ، وقد ضربه الفالج ، فأصبح نصف حي أو نصف ميت ، بل إنه لميت حقاً ، ولكن الحياة نسيت في بعض أوصاله نُفاية من نفاياتها ستزول عما قليل ...

وفي تلك الفترة شرعت المأساة الكامنة في البيت ترفع عن وجهها النقاب ...

لم تكد « فتنة » ترى ما حل بالزوج ، حتى سيطرت في لحظة على كل شيء في الدار ، باذلة ما في الوُسع من عزم وحزم ، فملكت الموقف ، وشدت الزمام ...

كان مَثلها في ذلك مَثل القائد الألمعي الذي لا يكاد يأنس اقتراب نهاية الطاغية في أمة ، وانفلات الأمر من يديه ، حتى يبادر بإقامة نفسه مقام هذا الطاغية ، يدير الأمر ، ويَقمع الفوضى ، ويضرب على أيدي العصاة ! ...

سرعان ما ألفينا « فتنة » تسدل ستارة غليظة بين البيت وما وراءه من العالم الخارجي ، حتى إن « بهية » لم تكد

تفيق من ذهولها حتى وجدت « فتنة » قد حملت الزوج إلى حجرتها ؛ فاختصت به ، وتولت رَعيه وتعهده ؛ ووقفت دون بابه تمنع الوصول إليه .

وَشَدَّ ما تطلعت « بهية » إلى أن تتفقد الزوج ؛ أو أن تسأل عنه ، أو أن تتعرف ما طرأ من شأنه ؛ فإذا « بفتنة » تفجؤها برد حاسم مقتضب ، وقد انعقدت على جبينها أسارير صارمة ، فلا تجد « بهية » مفيضاً إلى كلام ، ولا تلبث أن تتراجع مخذولة مقهورة ، لا طاقة لها إلا بعين تدمع ، ولسان يَلهَجُ بالضراعة والغوث ...

فأما الزوج فكان فاقد النطق ، فاقد الحراك .. وقد استحال فى لحظة من طود شامخ يهتز فيزلزل الأرض تحت قدميه ، إلى حطام ورُفات ...

هذا الإنسان العتىّ الجبار الذى كان يمشى فتخشَع به العيون ، إكباراً له ، وإعجابا به ، لقد صار الآن فى مضجعه كَوْمَة من لحم وعظم ، لا سِمَةَ عليها من مهابة الحياة !

لم يبق له من أسباب الاتصـــال بالعالم الخارجى إلا بصرٌ يبرق ، وسمعٌ يتلقَّط ...

وأى بصر ؟ ... إن هو إلا نظرات كابية زائغة ، كلما اجتهد

ثلاثي عمر الخيام

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ابتدع « النادى الأهلىّ » فى « القاهرة » بدعة جميلة ، تلك هى أن يقيم فى الفينة بعد الفينة حفلات ساهرة ، كنتُ أحرص على شهودها ، ما واتتنى الفرص ، وانفسحتْ لى الأوقات ...

وكانت هذه الحفــــلات طريفة فى مجتمعنا المصرىّ ، ونشاطنا الفنى ، بما تزدهى به من مشاهد فى الغناء والتمثيل ، مختلفة الشكول ...

وقليلا ما كنا نجد فى هذه الحفلات ممثلين أو مغنين محترفين . فجُل من كانوا يقومون بتلك المشاهد ، هم من كرام الهواة الذين شغفهم الفن الجميل حبّـا ...

وأظهر ما كانت تمتاز به سهرات «النادى الأهلى» فى ذلك الزمن ، طابع الإيناس الذى يَشيع بين النّـظارة . كأنهم أبناء الأسرة الواحدة . على تفرّق ما بينهم من المناسب والمنازع ...

سعدْتُ بأمسيّة من تلك الأماسى الشادية . وتبوأتُ مقعدى فى تلك الردهة التى ليس لها من مظاهر المسرح إلا منصة

نماذَجة أقيمت فى صدر المكان . ولبثتُ أتتبع المشاهد ، وفى يدى صفحة البرنامج أقلب فيها النظر بين فترة وفترة .

وأوشك أحد المشاهد أن ينتهى ، فأرسلت النظر فى البرْنامج أستوضحه ما سيجىء . فقرأت :

« ثُلاثى عمر الخيام »

يقوم به «على أفندى المستكاوى وكريمتاه» ! ..

وأحسست أن ابتسامة عابرة تتخايل على فمى .

« على أفندى المستكاوى » ...

وهل أنساه ؟

إنه ضابطنا فى المدرسة الابتدائية فى رَيِّق الصبا ...

ولمعتْ فى خاطرى صورة ذلك الضابط الظريف الذى كان يُحيل جوّ المدرسة المتحفظ المتزمت إيناساً ومِرَاحاً وبهجة . . .

كنا نعلم أنه رجل « ابن حظ » وهبه الله جانباً من حسن الصوت ، وآتاه ذوقاً سليماً فى تأليف المقطوعات الغنائية وتلحينها ...

وكان يتناهى إلى أسماعنا أنه سمير الأصدقاء ، يُحيي لهم حفلاتهم بالغناء والأفاكيه . وكثيراً ما شهِدناه قد تخَطر فى فِناء المدرسة يرسل ترنيماته فى الأفق ...

ولعل أعجب طرائفه أنه كان إذا نادى أسماء المعاقَبين من التلاميذ فى مُنصرَف النهار ، وقف ينادى كلا منهم فى نَغمة خاصة باسمه ، كأنه يضع لمختلف الأسماء مختلفاً من الألحان ، فيثير بين التلاميذ روُحَ الطرب فى أحرج الأوقات أوقات الحساب والعقـــاب !

لا عجب إذن أن يكون « على أفندى المستكاوى » بطل المشهد المسمىّ « ثُلاثىّ عمرَ الخيام » ... ولابدأن يكون مشهداً حافلا بالمفاكهة والإطراب .

ما أحبَّ إلى نفسى أن أتنسم نفحةً من نفحات الماضى يَرِف بها ذلك الضابط الأنيس !

وأحسست حركة على المنصة ، فأشرعتُ عينى ، فطالعنى على الفور « على أفندى المستكاوى » يقتعد كرسياً ، وعن يمينه ويساره صَبيَّتان ماثلتان ...

كان يرتدى جبة ساذجة ، وعلى رأسه عمامة كوّرها كما اتفق ، وهو يحتضن عوداً يداعب أوتاره ...

ولم يكن فى المشهد من معالم « عمر الخيام » إلا تلك الجبة والعمامة إن كانتا من معالمه !

فأما الصَّبيتان ، فكانتا فى لَبوُس أبيض ناصع فضفاض ،

يراد به أن يمثل زياً شرقيا قديما ، وماهو منه فى كثير ولا قليل ...

وأول ما راعنى من هاتين الصبيتين قوة الشبه بينهما كأنهما توأمان ، وذلك الخفر يكسو وجهيهما الوسيمين اللذين يفصحان عن أصالة منبت ...

كانت كلتاهما زهرة لما تتفتح عن كمّها تحرص على أن تختزن عطرها لنفسها ، لا تدعه مستباحا لكل من يشم ..

وشرع العود يخفق بأنغامه الرقاق وطفق « المستكاوى أفندى » يساوقه بصوته ، وما هى إلا أن تستجيب له الصبيتان عند كل مقطع ...

وكانت الأغنية تجمع بين لطف المعنى وعذوبة التلحين ، فأما الأصوات فلم تكن تبلغ مستوى الجمال الفنى ، ولا سيما صوت صديقى الضابط القديم ... فقد كان على الرغم مما يبذل من جهد متثلم الصوت ، متقطع الأنفاس ...

على أن المشهد ، فى جملته ، لقى استحسان النظارة ، فلم يكد ينتهى حتى تجاوبت أرجاء الردهة بالتصفيق ...

ولا ريب أن ما لقيه المشهد من الاستحسان مرده إلى تلك الروح اللطيفة التى تسرى فى الأغنية ، وإلى ذلك الصفاء الذى كان ينبعث من تينك الصغيرتين ، وهما تشدوان ...

وأعقب هذا المشهد فترة راحة ، وبعد لحظات رأيت « المستكاوى أفندى » وقد نضا عنه لَبُوسَ « عمر الخيـــام » وبدا فى زيه المألوف ، مصطحبا فتاتيه إلى الباب. وكانتا قد نزعتا عنهما اللبوس الأبيض الفضفاض ، وظهرتا فى رداء مألوف يأخـــذ بصرك أولَ نظرة بمظهره الرخيص ، وتفاهته التى تبلغ أقصى حدّ ... حتى تَرِنُ المرء ليلمح جوارب الفتاتين ، وقد توضحت فيهما الفتوق والرّتوق ...

ولمحتُ غيرَ بعيـــد مركبةَ أجرة ، جلس فيها رجل لم يكد يرى الفتاتين حتى تقدم فأخذهما صاعداً بهما إلى المركبة ، وهو رجل أشيَب وقور ، تدل مـــلامحه وسماته على أنه خادم من أولئك الذين تأنس بهم البيوت ، وتعدهم الأسر من أفرادهـا المكرمين .

أما « المستكاوى أفندى » فلم يكد يطمئن إلى أنه رد الوديعة ، وأدى الأمانة ، حـــتى كَرَّ راجعا إلى المقصَف ، يعب من الشراب ...

وأحدق به جمع من الخلان ، يشيـــدون ببراعته ، ويهنئونه بما أصاب من توفيق ...

ولما خـفت حدة الأحاديث فى حلقة « المستكاوى أفندى » ،

وأخذ الجمع يتفرق عنه ، دلفتُ إليه أقدم نفسى ، فتهلل وجهه ، وأطبق على يدى يحيينى فى ترفق ، ثم انطلق يبعث غابر الذكريات فى تنادر ومزاح ...

ولم تطل وقفتى معه . إذْ انقضت فترة الراحة ، وأوشكت المنصة ان تستقبل المشهد الجديد ...

وكان ابتهاجى بما أرى وما أسمع يخالطه شَوْبٌ من أسى وضيق ، كلما طالعتنى صورة « المستكاوى أفندى » وهو فى المقصف بوجهه المحتقن الذى لعبت به التجاعيد ، ويده الراعشة التى لاتكاد تضبط الكأس بين الأنامل ؛ ولبوسه الملفق الصدىء الذى تفشت فيه الأوضار ...

وملتُ على بعض الرفاق أسألهم فى شأن ذلك الصديق القديم ، فأنبأونى أنه أعفىَ من الخدمة لبلوغه السن ، وأنه تحت ثقل أسرة موفورة المطالب ، فهو لذلك يعانى العُسرة ، ويحاول أن يستدر الكسب باشتراكه فى بعض المحافل والسوامر ، ولكن إدمانه على الشراب وإفراطه فيه يتحيّفان كسبه ، فلا يزال فى معيشة ضَنْك .

ولست أدرى ماذا أقول؟! أأنا الذى انقطعت عن حفلات النادى فلم أشهدها ، أم النادى هو الذى ألغَى تنظيم هذه الحفلات ؟ .

وأكبر ظنى أن ثلاثة أعوام كاملة قد انقضت بعد ذلك ، دون أن يتناهىَ إلى سمعى شىء من أنباء « المستكاوى أفندى » ودون أن ألمح له وجهاً فى مكان ...

وجاء صيف ، ففررت إلى « الإسكندرية » أصطاف ، وكانت المدينة تغَصّ بالمساهر مختلفة الدرجات ، فقصدت ليلةً « مَسهر المنارة » وهو من المساهر الشعبية التى تتباين فيها المشاهد من تمثيل وغناء ...

وصادفتُ المسهر زاخر الجنبات ، فأقحمتُ نفسى بين الجلاس فى ذلك الجو الخانق العكر ، حيث تخيم على المكان سحائب ثقال من دخان اللفائف ، وصواعد الأنفاس ، وبخار الخمر الغثة ...

وطفقت المشاهد تتعاقب ، ولم يكن ثمةَ من بَرنامج مكتوب ، وإنما كان يقوم مقامه رجل هرِم من نُفايات المسارح يرتدى لبسة البهاليل يَزْعَق باسم المشهد الذى يَجِدّ على المنصة ، ويتخذ فى تصَايُحه لهجة المتظرف المتفكه ، ولكنه لا يظفرَ بغير السُّخر والاستهزاء ، فهو بَرْنامَج آدمى فاشل ، عز عليه التوفيق ...

انتابنى الضجر ، فأزمعت انصرافا ، ولكن البهلول استوقفنى بصيحته قائلا :

« ثُلاثىّ عُمرَ الخيام » ...

وسرعان ما وثب فى ذاكرتى ذلك المشهد الذى لا أنساه ...
فجعلت أسائل نفسى :
أحقاً ؟ ...

وفيما أنا يتنازعنى العجب والحيرة : رُفعت الستارة عن منظر شرقى مبتذل ، تتراءى فى أفقه سماء تَبِصّ فيها نجوم شواحب ...

ولمحتُ رجلا قد جلس على الحشايا يكسوه طيلسان ظاهر البِلَى ، وعلى رأسه عمامة ضخمة تكاد تبتلع وجهه ، وعن كَثَب منه عود ، وما لبث أن نهض يرصُد الفلك بمنظار طويل ، ثم أومأ بعض إيماءات مسرحية كأنه يستدنى إليه شيئاً فى السماء ، وما هى إلا ان هبَط المسرح فتاتان كأنما توحيان ببريق ثوبيهما أنهما نجمان ...

ومدّ الرجل يده إلى عوده ، وشرع يغنّى ، فإذا أنا أسمع تلك الأغنية التى سمعتها فى ردهة « النادى الأهلى » منذ أعوام ...

وأما الفتاتان فكانتـــا على الرغم من ثوبيهما الرخيصين تتضوّءان لطفاً وإيناساً . وتبدوان فى زينة هادئة لا تصُد النظر ، وكانتا فى وقفتهما على المسرح يمازج رقتهما خفر وحياء : بسمات حيرى ، وإشارات لا تخلو من سذاجة ، وسمات صافية بعثتْ من مراقد ذاكرتى ملامح طيفين شهــدتُهما بالأمس الدابر على

منصة « النادى الأهلى » ...

وتبع المشهد الغنائى لحن صامت ، كانت فيه الفتاتان تخفقان بأقدامها على أنغامه فى حركات ساذَجة أقرب إلى الرقص الإيقاعىّ ...

وكانت الفتاتان خلال هـذا المشهد البهيج تماثلان زهرتين نَديتَين تفتحت أكمامها ، فانبعث من حوليهما أريج يسرى فينعش الأنفاس ...

وما إن انفض المشهد حتى ضج المكان بالتصفيق والتهلل ، فشاعت البسمات عـــذبة على وجهى الفتاتين ، وهما تردان تحية النظارة تنم عن اغتباطهما بما أحرزتا من إعجاب ...

لم يكن فى المشهد كله مما يثير الحفاوة والإقبال إلا شىء واحد ، ذلك هو وسامة الفتاتين .

كانت فتنة جمالهما لُبـــاب ما فى المشهد من فن يستهوى القلوب ! ...

وأنّى للقلوب ألا تستجيب لهذا الضرب من الفن الرفيع ؟...

إنه هبة الطبيعة ، تسخو بها على أناس ، كما تسخو بالعبقريات المختلفة الضروب على الأفذاذ الخالدين ...

فتنة الجمال ! ...

أنْعِمْ بها من جوهر غال نفيس !...

حسبها أن تكون ، فإذا الفن فى رِكابها طَيِّع ذَلول ...

وبعد انقضاء المشهد تركت مقعدى ، لا أحرص على استيفاء برنامج السهرة ، وحثثت خطاى إلى ركن فى الردهة ، عن كثب من الباب الذى يخرج منه الممثلون . وانزويت أترقب ...

وبعد حين رأيت صديقى « المستكاوى أفندى » يتئد فى مشيته . متأبطا فتاتيه ، وعلى محياه مسحة زهو واعتزاز بما تملك يمناه ويسراه من ذخر ثمين !...

وكانت الفتاتان تسايران الرجل ، وهما تتغايدان فى مرح رفيق ، وقد اكتست كلتاهما ثوباً رشيقا فى سذاجته ، يسبغ عليها الوداعة واللطف ...

فأما « المستكاوى أفندى » فقد عُنِىَ أبلغَ العناية بملبَسه ، وتأنق فيه أيما تأنق ...

ولا أنسى رباط الرقبة المفهاف ، يميس على صدره أحمر قانيـــاً ...

وأحدقت أعين النظارة بذلك الموكب الصغير ، وشاعت حوله هوامس التحية ، وتعالت هواتف الإعجاب ، ولم تملك بعض الأكف أن تسترسل فى تصفيق ...

وكنت ألمح بين أولئك النظارة عيوناً يتمثل فيها الشَّرَه ، وتعتلج شهوات الافتراس ، وصافحتْ أذنى بين تلك الهوامس والهواتف نثاراً من ألفاظ نابية ليس فيها تحفظ ولا احتشام ، تتبعها ضحكات خلاعة ومجون . فكان « المستكاوى أفندى » يستقبل ذلك بوجه مربَدّ عبوس ، ونظرات ينبعث منها الاستنكار ...

فأمّا الفتاتان فكانتا تتلقيان تلك الحفاوة الخليعة بابتسامات خَجِلة ، تنمّ عن طرب واهتزاز ، حتى إنهما لتسارقان رُوّاد المسمَر نظرات فيها تلطّفٌ وارتياح ...

وجد « المستكاوى أفندى » فى مسيره إلى باب الخروج ، فإذا مَرْكبة أجرة يجلس فيها ذلك الأشيَب الوقور الذى رأيتُه فى مثل هذا الموقف على باب « النادى الأهلى » قبل سنين ...

ولم يكد « المستكاوى أفندى » يسلم إلى الرجل وديعتيه الغاليتين ، حتى قفل إلى المقصف يتخطر فى حُلته القشيبة ، ورباط رقبته المتلهب يباريه فى التخطر والازدهاء ، وما أسرع أن أنحىَ على الشراب يعبه عبا ...

ووجدتنى أجلس غير قريب من مَرْمىَ عينيه ؛ ولا أدرى ماذا عدّانى عن التقدم إليه أحييه . فلقد ملكتنى خواطرى ،

وجعلت أتصفح في مخيلتي مر الفتاتين بين الجموع . يحاصرهما من شَزْرِه الأحداق نطاق ، وتتساقط عليهما ألفاظ بذاءة وهَذَر ، فلا تضيق الفتاتان بشيء من ذلك كله ، كأنما يقع من نفسيهما موقع رضا واستحسان .

وأحاطت شِرذمة من أخـــلاط النظّـارة بصديق صريع الشراب ، يهنئونه بتوفيقه ، ويساجلونه الحديث ، فإذا بالرجل يشرئب وينتفخ ، وتأخذه عزة الفن ، فينبري مفيضاً في شرح دقائق المشهد الذى يضطلع ببطولته ، متمعناً في تفسير خوافيه في التأليف والتلحين والأداء ، مُشيداً بجهوده في تنظيم تلك الحركات الإيقاعية الراقصة ...

وكان يُتبعُ حـــديثه بإنشاد فقرات ومقاطع ، ثم لايلبث أن ينهض متراقصاً لتصوير حركة أو إيماءة مما ابتدعه في مشهده الفريد ، فيستجيب له الجمع متظاهرين بالإعجاب والتصديق ...

واستقبلت الحلقة ثلة من الشبان الموسرين الذين هم أحلاس اللهو ، ممن تقوم عليهم صروح المساهر ، بما ينفقون فيها من أموال سخية في بَذخ وتفاخر ... فأخذوا يشتركون في السماع ، ويغدقون الإطراء .

ولبث الجمع كذلك وقتاً ، ثم انفرط عقدهم رُوَيداً ، حتى لم يبق على مائدة الشراب إلا صديقى الضابط القديم ...

وكان برنامج التمثيل قد انقضى ، وَوَلِيَهُ برنامج المحاضرة ، فى حَلبة الرقص ...

وخلا المكان الذى يحجُب الرجل عنى ، فوقع بصره علىّ ، وبدا من نظرته أنه لم يَحُقّنى ، ثم تلاقت عينانا مرة ثانية . فألفيتنى ناهضاً إليه ، محيّياً إياه ، مقدماً نفسى ، فحيـانى تحية مهذبة ، غير متحمس فى الترحيب ... وكانت عينهُ تتوهج من أثر الشراب ، وبغتة قال لى :

يقينى أنك هنا منذ ابتدأت السهرة ...

— نعم ، وإنى أكبِـر مجهودك العظيم فى مشهدك الرائع ...

فأخذ يُحدّ بصره فى وجهى ، كأنما يريد أن يستجلى سريرتى ليتبين مبلغ قولى من الجد ...

ثم قال :

لا بد أنك فطنتَ إلى ذلك المدخَل الذى مهدتُه للقطعة الغنائية ... أقصد رَصْدَ الأفلاك .

— حقا كان مدخلا شائقا ...

فلما وثق بى ، واطمأن إلى قولى ، انبرى يشرح لى تفاصيل

المشهد وأسراره ، معيداً ما ألقاه على شرذمة النظارة التى أحاطت به منذ قليل ...

ورأيت من الكياسة أن أؤيده فى قوله ، وأن أستجيب له بما يزيد طمأنينته ، ولكننى كنت أحس ّ — وأنا ألفق حديثى — أن لكلماتى طعماً مرّاً على لسانى ...

وقد طالما أشاد صديقى فى محاضرته بما للتلحين وتنظيم الحركات الإيقاعية من أثر فى تقويم المشهد وإمداده بالروعة . كأنما يحاول صديقى بهذه الإشادة والتأكيد لها أن يلقى فى رُوعى أن ما حَظِىَ به المشهد من توفيق وإعجاب . لا مرد له إلا براعته هو فى التلحين والغناء !

وبينما كانت هذه الكلمات يَغَص بها سمعى ، كنت ألمح طيف الفتاتين يتخايل تُجاهَ عينى ، وهما تبعثان بابتسامة يختلط فيها التهكم بالإشفاق !

وأخيراً نهضتُ مودعاً صديقى ، فما إن فصَلتُ عنه ، حتى أحسست كأننى انطلقت من أسر ، ودفعت خطاى إلى الطريق أنتشق الهواء !

وتواصلتْ أيام وأيام ، وكلما لجّتْ بى الرغبة فى ارتياد مسهر المنارة ، صَدَدْت النفس عن هواها ، ولكنى فى النهاية لم

أطق لرغبتي دفعا ... فيممتُ المسرحَ أشهد « ثلاثيّ عمر الخيام » .

ظل المشهد في جوهره على حاله ، كما كان ، ولكن الجديد في الأمر هو ما أحاط بالمشهد من مظاهر ...

فقد ازدادت الفتاتان ألقًا وازدهاء ، وازداد الجمهور بهما إعجابا وإغلاء ... فما تكاد إحـــداهما تبدى أقل حركة ، أو تنثنى أهون انثناءة ، أو تبسط ذراعها أيسر بسط ، حتى يتعالى هتاف الإعجاب ، وتتوالى تحيات المعابثة ، فكانت الغادتان تستجيبـان لذلك استجابة مجترئ ممرَاح ، وتردان التحايا في رضـــا واغتبــاط ...

وفي مُنصرفهما ــ وهما تشقان الطريق بين النظارة ، يتوسطهما صديق في حلته الأنيقة ، ورباط رقبته الهفهاف ــ لاحظتُ ما كانتا ترتديانه من ملبس منتقى يُـفصح عن مفاتنهما اليانعة .

وما أسرع أن رأيت زمرة الشبان الموسرين اللاهين تطبق على « ثلاثيّ عمر الخيام » فتحجبه عن الأنظار ...

وما كاد الموكب الصغير يتدانى من باب الخروج ، حتى صاح فتى من أولئك الزُمرَة قائلا « للمستكاوى أفندى » :

لقد وعـدتـَنا أن تجيب أنت والآنستان دعوتنا إياكم إلى العشَاء ...

فبدا على وجه « المستكاوى أفندى » قلق وتردّد ، ولكن الزّمرة ما عتمتْ أن زحمتْ « الثلاثى المحبوب » فدفعت به صَوْبَ المطعم ، وكلتا الفتاتين تحاول أن تستر طربها فى منديلها المعطر ...

وتبعتُ الركبَ إلى مطعم المسهر ، فاتخذتُ مجلسى على مائدة أرقب من مكانها ما يقع ، دون أن تأخذنى العيون ...

وحملَ الطعام إلى مائدة الحفل شهيّا متعدّد الألوان ، معزّزاً بفاخر الشراب .

وشرع « المستكاوى أفندى » يتناول الكأس فى تمهل القانع ، ثم إذا هو يسترسل ، فيعبّ من الشراب بلا حساب !

ونهض أحد أولئك الزُّمرَة ، وكأسه فى يمناه قائلا :

فلنشرب على نجاح « ثلاثى عمر الخيام » ... طُرْفة الفن ، وآية الطرب !

وكان وهو يصيح بتلك الدعوة ، يحدّ نظره إلى الغادتين ، فابتسمتا له ، وضج المجلس بالتصايح والتصفيق ...

وضاق بالجمع صدرى ، فلم أطق بقاء حتى أشهد آخر فصول هذه المهزلة الشنعاء ...

وفيما أنا متأهب للخروج التقت عيناى بعينى صديق « المتسكاوى

أفندى » ، فأزاغ بصره عنى فى استنكاف ، وأيقنتُ أنه عرفنى ، فمضيتُ مسرع الخطو ، وأقسمت وأنا أغادر عتبة الباب على أنى لا أعود إلى « مسهر المنارة » أبدا ...

وبعد أيام دعانى صديق كريم إلى عشاء ، وطال عنده سهرى ، حتى آذن الليل بانتصاف ، فلما تركت بيت الصديق آثرتُ أن أترجل فى طريق استمتاعا بسكينة الجو وصفاء الهواء .

ولا أدرى كيف ألفيتنى أمر « بمسهر المنارة » ؟...

أقصداً كان ذلك منى ؟ أم هى خطاً تائهة ساقها القدر ؟...

وتلاحق على سمعى هدير الضجة وأنغام « الجاز » المعربدة المتمرده : كأنما هى ريح عاصفة تلفنى فى تدويمها ... فإذا بى تثقل خطاى ، ووجدتنى أخلى سمعى لهـــذه الأصوات ؛ كأنى أتنخلها لألتمس فيها صوتاً يعنينى ، وما لبثتْ أن سمعت صائحاً يقول فى اهتيـاج :

فلنشرب على نجاح « ثلاثىّ عمر الخيام » ! ...

وتقارعت الـكئوس ، وتجاوبت الصيحات ، تتوضح بينهـا ضحكات نِسْوية رقاق ! ...

وأمددتُ قَدَمَىّ بعزم ينجينى من تلك العاصفة النكراء .

وأخذتْ عينى مركبة الأجرة . ماثلة بباب المسرح ، وعلى سلمها

ذلك الأشيب الهرم قد تجمع ، ورأســـه يهوّم ، وسماته تنطق بالملالة والسأم .

وقطعت في السير شوطاً ، وبغتة ثارت بي الرغبة في العوْد ، وما هي إلا أن كنتُ عن كثب من باب « مسهر المنارة » ...

وظهرت ثُلة الشبان يُحدقون « بالثلاثيّ المحبوب » في صَخب وطرب ، وتقدم « المستكاوى أفندى » من مركبة الأجرة : فأسلم فتاتيه إلى الأشيب الهرم ، فانطلقت المركبة لغايتها ، وتقوضّ الجمع ، وهمّ « المستكاوى أفندى » أن يلجَ الباب ، قاصداً إلى الحان ، ولكنه في هذه اللحظة لمحنى ، فوقف يحدِجُني ببصره ، فأنكرت أني أراه ، وخطوت خُطاً سِراعاً في الطريق ، ولكنه صاح بي يناديني في صوت متحشرج ، ولحق بي بحث قدميه ما وسعه أن يحث فاضطُرِرْتُ أن أرجع إليه ، محييا إياه فلم يرد تحيتي ، بل وقف يبعث إليّ نظرات صارمة ، ثم صرخ :

لماذا تتجسس على ؟ ...

— أنا ؟ !

— نعم ، أنت ... لا تُنكرْ ... إنك تحاول أن تتعرف دخائل شئونى ... ماذا تعيب من سلوكى ؟ ...

— لا أعيب منك شيئاً ... لا شيء ! ...

— كذاب . كذاب وحق السماء ! ...

وأخذ بيدى يهزنى جياش الأعصاب ، وهو يقول :

لك أن تتقول علىّ ما شئت ... لا يعنينى منك قليل ولا كثير ... لك أن تشيع عنى أنى مهرج سكير ... ولكن أأنفق من مال أحد ؟ ... إن المهرج الذى لا يروقك يكسب قوته بعرق جبينه ، من أشرف طريق ! ...

— مهلك يا سيدى مهلك ... إنك ترمينى بما أنا منه براء ... ماذا أستطيع أن أقول فيك ؟ وأى شىء أشعته عنك ؟

— إنى على بينة مما يجول فى خاطرك ... أتظننى بليد الفهم ؟ إنى أتصيد الأفكار وهى طائرة ... الفن الرخيص الذى تزعم أنى أعرضه هو فن رفيع . ليس فى طوق أمثالك أن يحسن تذوقه ... إنى أضرب بما يقوله الناس عرض الحائط ... الفنان يعرف قدر نفسه ، ولا يبيح سمعته لأحد ... لك أن ترى رأيك فىّ كما شئت ، ولكن إياك أن تتجاوز هذا الحد ... فحذار أن تستطيل بك الجرأة إلى المساس بكرامة ابنتىّ هاتين ... فأما إن حدثتك نفسك بهذا الإثم ، فإنى باطش بك !

ورفع يده يلوّح بقبضتها فى الهواء . ولكنه ما لبث أن اختل توازنه ، وأوشك أن يتداعى ، فأسرعت إليه أقيله من

عثرته ، وهو ما برح يهدر محاولا أن ينحّىَ نفسه عنى ، كأنه يأبى أن أكون له عوناً ...

وأقبل بعض عمال المسهر يأخذون به ، ولم يستطع أن يتمالك ، فتعاونّا جميعاً على حمله إلى مركبة أجرة ، فما إن استقر فيها حتى أشار إلى العمال أن يَدَعوه وشأنه ، لا يرافقه منهم أحد ...

وجرجرت المركبة خطاها . ينازع صوتَ حركتها صياحُ « المستكاوى أفندى » وهو يمجد شرف ابنتيه ، ويعلو بهما عن أوضار القيل والقال ...

وقصدتُ بيتى تغتالنى مَضَاضَة ، ولا تبرح رأسى أخيلة ما وقع الليلة على باب « مسهر المنارة » ...

وكانت هذه الليلة آخرَ عهدى به ، فما طرقته بعد ، ولا دنوتُ من مكانه ، ولكن أخبار « ثلاثى عمر الخيام » كانت تلاحقنى كرْهًا . فلم تكن تخلو صحيفة من إعلان عن ذلك المشهد ، أو حديثه فى شأنه ، أو إشادة بتوفيقه ...

لقد انتقل « الثلاثى المحبوب » من « مسهر المنارة » المتواضع إلى مساهر أخرَ أعزّ مقامًا ، حتى تسنّم مكانة مرموقة فى « مسهر النزهة » أرقى ملاهى المصيف ...

وحاصرتْنى صور الفتاتين فى الصحف ، مختلفات الأوضاع ،

يتضوع من مفاتنهما أريج السحر ، وتتوقد فى عيونهما نزعة الغَواية والإغراء وكلما لمحت هذه الصور طالعنى على الفور طيف وجهين على منصة « النادى الأهلى » ينقلان نظراتهما البريئة على استحياء !

وتعاقبت الأيام أكثر من عام ..

ودُعيت إلى حفل فى « فُندق شبرد » تقيمه هيئة اجتماعية لها خطر ... وضم الحفل صفوة الكبراء ، ونُخبة السراة ، ممن تلتمع شخصياتهم فى مختلف النواحى والبيئات .

وبعد أن ألقيتْ خُطب تناسب المقـــام دُعينا إلى العشاء . فأبصرنا الموائدَ مَحلقة فى بُهْرتها مَعرض لمشــــاهد مسلية من الرقص والغناء ، ووُزع علينا البرنامج ، فقرأتُ فى سطره الأخير: « ثلاثى عمر الخيام »

انتظرتُ على أحر من الجمر أن أرى صديق وفتاتيه بعد غيبة طال مداها ...

ولما حان ظهور « الثلاثى المحبوب » أظلم المكان ثم انصبت الأضواء بغتة على بُهرَة الحلقة ، مختلفا ألوانها ... وبدا « الثلاثى » فى المعرض يتخطر ، فانبعثت من الأكف عاصفة من التصفيق ...

ولا أخفى أن هذا المشهد قد بهر عينى حقا بتلك الأزياء الفاخرة، والحلى اللألاءة ، وذلك الترف الواضح فى كل ما تقع عليه العين ...

ولكن كل هذه المباهج كانت تتضاءل وتتصاغر إزاء تلك البسمات التي يفترّ عنها ثغر الغادتين ، متوهجة بفتنـــة الأنوثة ، تنسكب صهباؤها متقدة حَرّى ، لو شرب قطرة منها «عمر الخيام» في صوفيّته لأوحتْ إليه أن ينظم قلائد تُزْري برباعيّاته . وتجرّ عليها ذيل العفاء !..

وراعني أن المشهد قد خلص من عنصر الغناء ، وطغت الموسيقى والرقص الإيقاعيّ على المشهد كله ، فلم تدع لسواهما مقاما فيه . . .

ولكن أي موسيقى وأيّ رقص إيقاعي أسمعُ وأرى ؟

حَسْب الفتاتين أن تَنِدّ عنهما انثناءة عِطف ، أو التواءة خصر ، أو اهتزازة قدّ ، أو اختلاجة نهد ، أو انبساطة ساق ، في ذلك الموج من الأضواء الملونة ، حتى تسرى نفثات السحر فتملأ شِعاب القلب من نشوة وإمتاع . . .

وحدّثْ ما شئت عما لقي المشهد من تَرحاب وإعجاب ، وما وُدّع به من هُتاف وتصفيق . . .

وبعد حين رأيت صديقي « المستكاوى أفندي » في حلة السهرة السوداء ، متألقاً يقصد منضدة تحفل بزمرة من عِلية القوم ، وما لبثوا أن تقارعت أيديهم بمترَعات الكئوس . . .

وأما الغادتان فقد ازدانت بهما منضدة الصّدارة ، حيث يجلس الداعى وكبراء المدعوين . . . وكانت الغادتان فى أتم زينة وأبهى حُلل وحلىّ ، تتوالى عليهما ألوان الحفاوة من كل جانب . وماأسرع أن تجمعت حول هذه المنضدة فرقة المصورين كسِرب من النحل يتفنن فى اقتطاف ما يطيب له من نَضرَة هاتين الزهرتين العطرتين . . . وانطلقت قذائف الأنوار من يد هؤلاء المصوّرين تتصيد مختلف الأوضاع ، على حين تنبعث من جمع الحاضرين لطائف النكات والضحكات !

وصَدرْتُ عن الحفل أسير راجلا فى الطريق ... عارضاً فى مخيّلتى تلك المشاهد التى مرّتْ بى الليلة .

وأطلقتُ العِنان لفكرى يحلق فى هذا المجتمع الصاخب . موازنا بين ما فيه من زيف وجوهر ، وباطل وحق ، متسائلا :

أىّ العوامل هى التى تتيح النجاح وتُؤْتى الفوز فى هذه الحيـــــاة ؟

وعلى أىّ أساس يُصْدر المجتمع أحكامه على سلوك الناس ومصايرهم وتقلبهم فى مراتب الأخلاق ؟

وزحمتنى الأفكار . واختلفت بى السبل ، واختلطت علىّ القِيَمُ ، فلم أعد أستطيع تمييزا ولا وزناً ولا تفرقة بين صلاح وفساد ،

أو زيغ وسداد !

وفيما أنا تستغرقنى هذه الحيرة ، إذا بسيارة فخمة رائعة تتهادى جوارى ، فتطلعت إليها ، فرأيت فيها أفذاذاً من ذوى المقامات الكريمة ، يتوسطهم فى عزة وخُيَلاء ، وفى ترف وازدهاء ، ذلك الثلاثىّ العظيم ... « ثلاثىّ عمرَ الخيام » !

ابنة إيزيس

دخل المثّال ردْهة منزله ، فى لمـــة من رفاقه ، متجهاً بهم إلى مكان تمثاله الجـــديد « ابنة الرّبة إيزيس » ذلك الذى أتم نحته منذ قليل . . .

وكان صديقه كبير الكهنة قد علم بهذا التمثال الفاخر فأعد له فى الهيكل الأعظم أكرم مقام .

أما هذا المثّال فهو فى زهرة العمر ، وقد حلّى كثيراً من الهياكل بالبارع من تماثيله ، وعلى الرغم مما ذاع من شهرته ، وما بلغ من مكانته ، فإنه يلمح الذروةَ التى يتطلع إليهـــا بين عباقرة الفن بعيدة المنال . . .

وإنه الآن إذ يزهو بتمثاله الجديد ، ليشعر بأن ذلك التمثال جدير أن يتسنم به تلك الذروة ، فتكون له الصدارة بين الخالدين من بُناة التماثيل .

والرجل يقضى حياته فى صحبة زوجة وفية أخلصت لبيتها الإخلاص كله ، ووفرت لزوجها وسائل الطمأنينة والإسعاد .

وإن له منها طفلة توشك أن تستكمل عامها الخامس ، ولكن هذه

الزوجة على ما تبذُل من جهد لا تسلم من لوم الرجل وتعنيفه ، فهو دائب على الانتقاص من قدرها ، حريص على الزراية بها ، يأخذ عليها دائماً أنها في غفلة عما هو فيه من حياة فنية ، ويرى أنها لا تتذوق من الفن ما يتذوق ، ولا تشاركه في تلك السَّبحات الرفيعة في آفاق الروح ، فليس بينهما في هذا المجال من تجاوُب أو نجوَى .

ولقد يذهب الرجل في تجنّيه على الزوجة كل مذهب ، فيرميها بأنها تعكر عليه صفو خلوته إلى عمله ، وأنها كثيراً ما تخدش السكينة التي يأنس إلى ظلها في ساعات الإلهام ، ولها من طملتها المدللة الشّغوب عون أى عون على إثارة القلق والاضطراب ...

وطالما صاح الرجل بزوجه في نوبات غضبه : قائلا :

ما دمتِ لي زوجا ، فلا أمل لي في أكون فناناً عبقريا ، فإنك لتفرُشين طريقي بأشتات العوائق والعقبات ...

إلا أن الرجل اعتقد منذ فرغ من نحت ذلك التمثال الجديد « ابنة الرّبة إيزيس » أنه قد صنع معجزة الفن التي تيسر له منزلة الخلود ... فلا غَرْوَ أن يزهو وأن يدعو رفاقه إلى المنزل يشهدون فنه في أوْجه الرفيع !

وأقبل الرجل في أصحابه على التمثال ، وكان في صدر البهو ،

مسبَلةٌ عليه غلالة . وطفق المثال يتحدث فى شأن تمثاله ، كأنّما يهيء أذهان الرفاق لاستقباله ، وييسر لهم تذوّق مافيه من روائع الفن وبدائع الجمال . . .

وما إن اطمأنّ إلى أنه أوْفى من ذلك على الغاية ، حتى أخذ يميط الغلالة عن التمثال ، فانتظمت الجمعَ هزة إكبار وإعجاب ، وجعلوا يهمهمون بألفاظ التمدح والإطراء.. فاشتعل المثال حميّة ، وانتفضت منه المشاعر ، فتدفق فى التحدث عن تمثاله، مشيراً إلى أوصاله وشياته ، مُفيضا فى التعجيب ممـا تتميز به من روعة وافتنـــان . .

وفيما هو مستغرق فى الحديث لايجفّ له ريق . إذ تراءت طفلة انفرجت عنها إحدى الستائر ، وقد تسللت فى خطا حَذِرة ، وهى تنقل النظر فى البهو ومن فيه ...

لقد ترامى إلى سمعها صوت أبيها يشقشق بالحديث عن التمثال ، فقدمتْ تستطلع الأمر ... وقد وقع فى وهمها أن أباها يقص قصة طريفة ، فأرادت أن تستمع إليها فى غفلة من عين أمهـــا ، فلقد حذرتها أمها أن تخرج إلى أبيها فى تلك الساعة التى تشغَله عن كل شىء . . .

ورأت الفتاة حول أبيها ذلك الجمع الماثل وقد أنصت له كل الإنصات ، فأذكى ذلك من فضولها ، فواصلتْ سيرها وئيدة الخطا ، وعيناها السوداوان النجلاوان تلتمعان بِشراً وارتياحاً ، ويداها معقودتان خلف ظهرها دلالا واختيالا …

وكان أن انحرف بصر واحد من الرفاق ، فلمح الطفلة آتية ، فاستغرب الأمر بادىء بدء ، وعجب لتلك الطفلة : كيف يُؤْذن لها أن تقتحم ذلك المحراب الفنيّ الذى لا تعرف له كنها ؟

وخشِى أن يكون من الطفلة ما يثير استياء أبيها فى تلك الساعة ، وهو يحسَد منه سرعة الغضب فى مثل هذا الموقف ، فسلّ نفسه من بين الجمع ، وعجِل إلى الطفلة ، فإذا به أمام وجه أميلَ إلى السمرة ، جذاب الملامح ، ذى عينين دعجاوين ، وشعر فاحم موّاج … فانحنى يمسك بيدها ، ويحاول أن ينحو بها نحو باب الخروج ، وهو يسرّ إليها قوله :

يحسُن بك أن تعودى إلى أمك … إنها تدعوك !

فلبثتْ تحدق فيه بهاتين العينين اللتين تأتلقان ذكاء وحيوية ، وقالت فى لُثْغة محبّبة ، وهى تتمهل فى الكلام ، كأنها تزن ألفاظها وزناً :

أمى ليست فى حاجة إلىّ !

واهتز الرجل لتلك اللهجة المتزنة ، وذلك النغم الأغنّ . فلم يملك أن ابتسم ، فاستجابت له الطفـــلة بابتسامة حلوة كشفت عن أسنان لؤلؤية منضّدة ، وأخذ الرجل يلاطف يدها قائـــلا :

إن أمك لا شك فى حاجة إليك ، وهى الآن تبحث عنك ولا تجدك ، فهلمّى إليها . . .

فقالت له الطفلة وهى على حالها تحدق فيه :

أمى فى المَطْبَخ تُعدّ الطعام !

وألفى الرجل نفسه رانياً إليها ، يتملى فتنة محيّاها ، ثم همهم خافض الصوت :

ولكن يا صغيرتى عليك أن تعودى ...

وخطا آخذاً بيدها إلى الباب ، فازورّت به عن الطريق ، واستدارت تقول :

لماذا لا تريدنى أن أصغى إلى تلك القصة اللطيفة التى يحكيها أبى؟

فاستفاضت على وجه الرجل ابتسامة رقراقة ، وشاعت بين جوانحه بهجة جياشية ، وقال وهو يعانى أن يخافتَ بصوته :

حقاً إنها قصة لطيفة ، ولكن ألا ترَيْنَ هذا الجمع الزاحم ؟ إنه يعوقك أن تسمعى شيئاً !

فتشبثت بيده، وقالت وهى تحاكيه فى همهمته والمخافته بصوته:
إذن احكها لى أنت !

وإذا الرجل يجد نفسه قد حمل الطفلة بين ذراعيه ، وهو يتوسمها حيناً ، فتقبل هى على خده تلقى عليه قبلة من ذلك النوع الخَضِل ... قبلة كأنها الزهرة فى كِمها لم تنضَح بعد عطرَها الفوّاح ... ثم قالت فى إلحاف :
احكها لى ... احكها لى ...

فمضى الرجل بالطفلة خفيف الخطو ، وانتبذ بهـا ناحية ، وجلس على متكإ ، وأراح الطفلة على ركبته ، وطفق يحكى لها من صيِّد خياله ، وهى شديدة الإصغاء ، يلوح على محياها كبير اهتمام ...

وظلت تتابع حديث الرجل معبرة بملامحها وإشاراتها عما تسمع من مشاهد الأقصوصة الساذَجة ...

وطالما قطعتْ حديث الرجل تحاوره فى منطق هين لين ، ولا تلبث أن تدعوه إلى استئناف الحديث ...

وكان الأب المثّال ماضياً فى عُجب وازدهاء يشرح لرفاقه روعة الفنّ مصوّرة فى تمثاله الفذّ ...

وشاعت فى الردهة سارية من الجهامة والتزمّت . حتى لتحسَب

أن ثمة سحباً جعلت تتعقد فى أفق الحجرة ، فتلقى على المكان غشاوة من قتام ...

وما كان ذلك الفنان فى لهجته المتحفظة ، ومنطقه المعقد ، المطوى على الأحاجى ، إلا كمثل كاهن متخشع يثقله التزمت ، وقد استرسل فى مواعظه الجافية المملولة .. والرفاق من حوله ، تبدو على وجوههم علائم المضض والكلال ، ملقين أسماعهم إليه على اضطرار ، وإن لم يفهموا الكثير مما يبلغ الأسماع ...

فأما التحفة الماثلة ، ابنة الربة إيزيس ، تلك القطعة الفنية التى تمثل الطفولة الزكية ، فقد تراءت حيال الجمع كدراء مغضنة الوجه كابية ، وكأنما قد تكاثفت عليها أنفاس ذلك الفنان العبوس ، فغاضت نضرتها الفتية ، وذهبت بشاشتها الصافية ، واستحالت عجوزاً أو قربتها السنون ! ...

وبدت من أحد الرفاق لفتة غير واعية ، كأنه استشعر الحاجة إلى أن يريح بصره مما يرى تجاهه ، فوقعت عينه على رفيقه قد خلا بتلك الصغيرة فى ناحية من الردهة يتناجيان ... فرأى قدميه تخفان به إلى ذلك الركن القصى ، وما هى إلا أن اشترك مع الصغيرة فى ملاطفة وحوار ... وما أسرع أن انتعشت روحه بسحر تلك الفتنة الوادعة ، فتنة الطفولة فى أبهى حلاها وأروع خصائصها .

وما لبث هـذا الثالوث الصغير أن اجتذب إليه من الرفاق واحداً بعد واحد ، وكانت الطفلة واسطة العقد فى هذا الجمع ، تُشع فيه الأنس والبشر والمِراح ...

وما زال الرفاق حول الصغيرة يتنافسون فى اجتلاب بسماتها وانتهاب قبلاتها ، حتى احتوى هذا المجلس سائر الرفاق : فلم يبق هنالك حول التمثال إلا ذلك الفنان العبوس فى غمرة من أحاديثه الغامضة ، وأحاجيه الملتبِسة ، يتناول بها أسرار الفن والجمال ، لم يشعر بانفراط الرفاق من حوله ، وانفضاضهم عنه : فقد كان ضبَاب العتمة والوحشة يغشى عينيه ، ويُطبق عليه . على حين كان الركن القصىّ ، ركن الطفلة ومن اجتمع حولها من الرفاق ؛ قد أضاء بنور علوى وضّاح السنا ؛ وكأن « إيزيس » نفسها هى التى أشعتْ ذلك النور على تلك الطفلة ، فأحس الرفاق كأنما هم أمام ابنة الربّة الحقة قد تجسدت فى ذلك الكائن الإنسى اللطيف ، وكأنما هذه الطفلة قد خرجت بهم من عالم الوحشة والظلمة إلى عالم من الطلاقة والنضارة والإشراق ...

ها هم أولاء يحسون لها نشوة الحب الصادق ، بل ما هو فوق الحب ... إنهم يحسون لها روح التعبد فى هيكل معتم موحش تتلاطم فيه أشباح البخور المفزعة ، وتنوح التراتيل المكروبة ...

إنه تعبـُد بروح الطبيعة الطروب ؛ فهم بين يدى «ابنة إيزيس» الحقة تتوقد حيوية ، فتبعث فى نفوسهم دفء الحياة ، وتهبهم قبساً من شعلتها المقدسة ...

ليسوا هم الآن حيال تمثال قـُدَّ من صخر ، مهما يتفنن صانعه فى نحته ، فإنه يحاول عبثاً أن يبث فيه وَمْضة من نور ساطع ينبعث من ذلك التمثال الحىّ ...

لاريبَ عنــــدهم الآن أنهم يتعبدون على خير وجه ، وأهدى طريق .. فهم يرَوْن أنفسهم قد ظفروا بجوهر التعبد ، ذلك التجاوب الروحى ، والتمازج الصميم ، بين العابد والمعبود ... ذلك الحب الساذج يخفق به القلب مستشعراً متاع الحياة الصريح ، غير مشوب بخشية أو ترهيب... ذلك التطلع إلى وجه الإله ، دون فروض أو قيود أو رسوم ... ذلك الارتواء من نبع علوىّ عذب الفيض يسير المنال ! ...

كانت «ابنة إيزيس» الطروب الممراح بين أيديهم يتوسمونها ويطارحونها ألوان المطايبات والأفاكيه ، فيرون فيها أروع مثال للفن العبقرى ، الفن الذى تحس الفطرة جماله ، وتتذوق متعته ، دون تعريف أو إيضاح ... الفن الذى لم ينحته إزميل ، ولم يعمل فى تسويته مِرْقم ، ولم تتكلف التأنق فيه أنامل صانع من البشر ...

إنه نعمة الطبيعة الحسنى ومنحتها الطيّبة ، سخت بها عفوَ الخاطر ، لا تصنُّعَ ولا معاناة ! ...

وظل الأب الفنان بجانب تمثاله الصخرى وحـــده ، وهو مسترسل فى شقشقته ، فلما فطن إلى أنه خال بنفسه ؛ يتحدث إليها ، تلفت حائراً يتفقد الرفاق ، فلمحهم فى أقصى الردهة ملتفين حول ابنته الصغيرة يتناوبون حملها بين أكُفهم ويجاذبونها أطراف الحديث ...

فهبت بين جوانحه عاصفة من الغضب ، وهمّ أن يخطو إلى الجمع يعلن إليهم استنكاره ، ولكن عينه التقت بتمثاله ، ففطن أولَ مرة إلى أن به شيئاً غير مألوف ، فأخذ يحدّ النظر فيه . ثم عدل ببصره إلى طفلته فرأى عينيها الدعجاوين تُفيضان السّنا ، وابتسامتها الرّفافة تُشيع البهجة والإيناس ..

واستأنف النظر إلى تمثاله ...

أثمة جهامة تغشى عينى التمثال ؟

أثمة جفوة تتمثل فى الشفتين ؟

وهل تكون « ابنة إيزيس » جهمة جافية ؟

كيف سولتْ له نفسه أن ينحت التمثال عبوساً جافى القسمات ؟ ...

وجعل ينقل بصره بين الطفلة الجياشة المِمراح وبين الطفلة الصلدة العبوس ، ولبث كذلك وقتاً ، حتى أحس الغضب يتلهب بين جوانحه ، الغضب على نفسه وعلى تمثاله جميعاً !...

لقد جاد فيه فى هذا التمثال ، حتى أصبح فى عينه تحفته الخالدة ، وإنه الساعةَ ليتبين تفاهة هذا الأثر الذى بلغ به أوْجَ الفن ! ... فكيف إذن تكون نظرته إلى سائر تماثيله التى تفاوَتَ تقديرُه لها من قبل ؟

وأخذت الغِشاوة تنقشع عن عينيه ، وإذا هو قد انتفض انتفاضة تزايلت بها كبرياؤه واعتزازه ، وشعر بوطأة الخيبة وثقل الهزيمة ، فتهاوى على مقعد قريب منه ، وقد انتكس رأسه ، وانطبق جفناه ، وتدلتْ يداه ... وانساب به الفكر فى ظلمات يأس وقنوط ! ...

وأنبهته أناملُ رقاق تداعب كتفه ، فرفع رأسه ينظر ، فألفى طفلته بجانبه تبتسم له على تخوّف وحذر ... فهم أن ينحيها عنه ، ولكنها عاجلته تتعلق برقبته ، وتقــول له فى رجاء ، وهى تشير إلى التمثال :

أبى ... أبى ... قص علىّ قصة هذه الدمية ... إنها بهية الطلعة !

فألفى نفسه يقول لها من فوره :

أتروقك ؟

— غاية فى الجمال !

فنهض الرجل بطفلته ، وأدناها من تمثال « ابنـة إيزيس » فـلم تلبث أن أقبلتْ على التمثال تقبّل محياه فى بهجة وفرح ، فأحس الأب طارئاً من النشوة يسرى فى أوصاله ، وإذا هو يضم طفلته إلى صدره مهتاج النفس ، وإذا هو يطبع على جبينهـا قبـلة جيّاشة ! . . .

عِنْدَمَا تَضْحَكُ الأَقْدَارُ

جلس إليه صديقه فى مشرَب من المشارب المعروفة ، يناقله الحديث فى شئون الزواج ، وقد رفرفت حولهما أنسام الأصيل ...

وكان هو بَرِماً بحياته الزوجية ، يشرح لصديقه ما يعانيه من متاعبها ، على الرغم من أنه حديثُ عهد بعُرْس ...

فانطلق يقول :

لقد حسبْتُ شهر العسل مديد الأمد ، فإذا هو متضائل منكمش قصير العمر ، وما أسرع أن بدأنا عهد مناوأة وعناد ... إن الحياة ياصديقى لأقصرُ من أن تتسع لهذه المناكَدات ، ولذلك أجمعنا أمراً نضع به حدًّا لما نكابده ... ما أعجبها نهاية عاجلة لم تقع لى فى حسبان !...

وأشعل الزوج المتذمر لفافته ، وأشرَع نظراته فى الأفق ؛ كأنما يطلب إلى السماء تخفيف ما به ...

وانبعثت صدَحات موسيقية رفيقة تتودد إلى الأسماع ،

وكان نغمها شجيـًا تستنيم له الأعصاب ،وتستيقظ الأحلام .. فلبثه الرفيقان وقتاً يستعذبان تلك الأنغام الرقاق !...

وتنهد الزوج من أعماق صدره . وهو يصل ما انقطع من حديثه ، فى صوت تشيع فيه الرخاوة ... قال :

أتعلم كيف عرفتها ؟

إنها لمصادفة عابرة كان لها فى حياتى أبلغ الأثر ، ومن عجب أنه كلما خطرت ببالى ذكرى هذه المصادفة أهدتْ إلىّ جديداً من المتـاع ...

كان ذلك على شاطىء « سيدى بشر » ...

وكنت فى لمة من الصحاب نسبح ، ونستمرئْ مداعبة الأمواج ...

وبغتة دَوّتْ صرخة استغاثة ، فرأيت الشاطئْ قد تراكمت عليه جموع الناس مهتاجين يحدّقون فى الماء ...

وسرعان ما ظهر قارب النجاة يسوسه ذلك البحار المعهود ،فى قميصه المخطط ، وسراويله القصيرة الدكناء ، تتهدل على جوانب وجهه قبعته البيضاء ...

وتلفتُ أنظر حيث ينظر الجمع ، فلمحتُ على البعد رأساً

لا يكاد يطفو حتى يطويه الموج ...

وألفيتني أسبح من فوري ، قاصداً إليه ، دون أن يكون ذلك وليدَ عزم أو تفكير ...

إنها خطفة من خطفات الشعور ، تريد المرء على الاضطلاع بعمل جسيم ، دون حساب لعقبى ، أو تقدير لما يكون ...

كنت آنئذ كتلة من الأعصاب ، أتدفع فى تهور للحاق بذلك الرأس الذى يصارع الموت ...

ووجدتنى أسبق القارب ، وكلما دنوتُ من مكان الرأس ، ازددت من حمية وحماس ، فلقد كنت أحس أن أنظار الجموع على الشاطئ ترقب ما أنا مقدم عليه ...

واقتربتُ من المكان المقصود ، فإذا الرأس يغشاه الموج ، وتنتشر على صفحة الماء خُصُلات من الشعر كأنما هى دماء قاتمة مسفوحة ...

وغاب عن عينى فى لحظة كل شىء ... وشعرت بأنى أتهاوَى بين طباق الماء ، أتلمس ذلك الغريق الذى تعلق مصيره بجهدى .

وما كنتُ أرى شيئا ... فقد تخبطتُ فى بطن الموج ، أضرب بيدىّ على غير هدى . وفجأة وجدتنى أرتطم بجسد ، وأحسستُ على الفور يدين تتشبثان بعنق فى قوة وعنف . ولا أدرى أىّ جهد

واتانى حتى استطعت أن أجتاز غائلة الموج ، دون أن يجتذبنى التيار بمن أحمل إلى القاع !

طفوت على سطح الماء ، ومازال الجسد متعلقاً بى ... وشاهدت من خلال غشاوة الماء التى تغلف عينى شبح القارب يتوسطه ذلك القميص المخطط والسراويل الدكناء ، وهو يصيح بى أن أعجلَ إليه ، فلم أعره جانب اهتمام ... وكيف لهذا البحار الفضولىّ أن ينازعنى ماغنمته من فوز ، ويقاسمنى دون حق ما بذلت من مجهود ؟! ...

ظللت فى طريق أشق العباب ، وأنا أحمل ذلك الغريق ، وكنت أحس رأسه ملقى على صدرى ، وشعره الفاحم الغزير يناوش عنقى ...

ولا أذكر أنى تبينت من قسمات الوجه شيئاً . وقصارى ما لاح لى منه أنه وجه ممتقع ، لا تنبعث منه أنفاس ...

وكانت صيحات البحار الفضولى تلاحقنى ، وضربات المجداف تبعث خفقها إلى أذنى ، فألهب ذلك من شعورى ، وأمدّنى بقوة أستعينها على الانطلاق ...

لن أفلت هذه الفتاة التى ألقت المقادير شبابها ونضارتها بين يدىّ ...

لقد آمنت منذ اللحظة الأولى بأن مصيرها قد ارتبط بمصيرى ،

وأنها قد أصبحت لى أنا وحدى ! . . .

وبلغت الشاطئ ، فصعِدتُ إلى اليابسة، وأنا أحمل كنزى الثمين أشق به الزحام ، ومن حوالىّ يتعالى الهتاف !

وأشعل الزوج لفافة ثانية ، وزفر زفرة حرّى ، ثم استأنف يقول :

ما يسوغ لى أن أنكرَ ما أسدتْه إلىّ هذه الفتاة من جميل ...

تلك النشوة الفريدة فى حياتى ، بل فى حياة الأقلين من البشر ...

ذلك الشعور النادر من الفوز والانتصار ...

ذلك الزهو الرفيع الذى يرنّح أعطاف من أنقذ حياة إنسان !

ولم تنقض أيام حتى كنتُ للفتـــاة خاطباً ، ثم أصبحت لها زوجاً ... وشمِلتنا غفوة من غفوات الأحلام ، نعمنا فيها بأفانين من مباهج الحب ومناعمه الحسان !

ونفض الزوج لفافته على طرف المنضدة ، وجعل يعبث بما تناثر من الرماد ، وهو يردّد نظرات أسف وتحسر ، ثم نفخ فيه نفخة أسلمته للريح . . . وهمهم :

لقد تطاير كل شىء كما تطاير الآن هذا الرماد . . ، لم يكن من ذلك بدّ . . .

لست أدرى كيف أفضى بنا المساق إلى هذه القطيعة ؟

قصارَى ما انكشف لى أننا كنا على غير تآلف ، أو على طرفَى نقيض ...

ما اتصل بيننا شىء إلا كان مثارَ تنازع واختلاف !

وأرسل الزوجُ المنكودُ ضحكة عصبية ، وواصل قوله :

بل إن أمراً واحداً لم نختلف عليه ... ذلك هو الفراق !

على هذا الفراق اتفقنا ، فى خلوة شملتها السكينة والصراحة والإخلاص ...

ولقد كان اتفاقاً كاملا تفاهمنا فيه على « مستقبل الجنين » ...

فسأل الصديق ، وقد اتسعتْ حدقتاه ·

أحامل هى ؟

— أحْدَثُ ما علمتُ أنها مُوشكة أن تضع ... إن هى إلا أيام ...

— وهل تتزاوران ؟

— لم أرها منذ أشهر ...

وأمسك الصديقان عن الكلام .

ثم بدأ الزوج يقول :

إنها تطلب الاحتفاظ بالطفل . فلتكن لها مشيئتها ، وسأضطلع بكل ما تتطلبه الحال من إنفاق ... فى سبيل الراحة تهون الصعاب ! ...

لستُ بمضمر لها حقداً ولا ضغينة ، وما أضَنَّ عليها ببذل ما يستوفى لها الطمأنينة ورفاهة البال ...

وأقبل فى هذه اللحظة رسول إلى الزوج ، فتدانى من أذنه ، وهمس له بكلمات أثارتْ فى وجهه علائم الاضطراب ، ولكنه سرعان ما تمالك .. وهمهم : لا بأس ... ليس فى الأمر ما يهمّ !

وتزايل شبح الرسول ، وجعل الزوج ينقُرُ المنضدة بأصابعه نقرات تفصح عما يختلج فى حنايا صدره من قلق .

ثم التفت إلى صديقه قائلا فى ضحكة عابثة :

هم يبلغوننى أنها تضع ... أوَ حسبونى طبيباً يُدْعىَ فى هذه المناسبة ؟!

فواجهه الصديق قائلا فى لهجة رزينة :

إنك الزوج على أية حال !

فصاح فى صوت متهدج يقول :

أتدْعونى زوجاً بعد أن تقطعت بينى وبينها الأسباب؟

فقال الصديق هادىء الصوت ، رقيق النبرات :

إن الزوجية بينكما فى هدنة ... لستُ بفارض عليك شيئاً ..

لك أن تسلك الطريق الذى تهوَى ... لو كنت مكانك ...

فقاطعه الزوج قائلا :

لكنتَ الآن بجوار سريرها تحمل عنها بعضَ ما تعانيه ! ...

أليس كذلك ؟ !

— حقًا إنك لإنسان غريب الأطوار ...

— أى غرابة رأيتَ منى ؟

فلاطف الصديق كتف الزوج قائلا :

إن أوضاع المجتمع تدفع بنا إلى اتخاذ موقف فى الحياة ليس لنا منه مَفِيض ...

ثم تمهل يقول ...

أضف إلى ذلك أن الموقف موقف إنسانىّ ، يجب أن نترفع به فوق المشاحنات والأحقاد ...

— إذا شئتَ الحق ، فقل إن الموقف لا يعدو المجاملات الرسمية والتظاهر بما هو فى الواقع رياء اجتماعى ...

ونهض الزوج على الفور ، فسأله الصديق :

إلى أين ؟

— ألم تُرِدْنى على أن أذهب إلى المستشفى ؟ !

ووقف الصديق يبسم فى ملاطفة ، وأخذ بيد الزوج يضغطها

كأنه يقول له :

نِعمَ ما فعلتَ !

وما كاد الصديقان يبارحان المشرب ، حتى التفت الزوج إلى رفيقه ، وهو يتراءى بالمداعبة والمعابثة ... قائلا :

وماذا تقترح أن أفعل أيضاً ؟

— مثلك فى رقة حاشيته ودماثة طبعه لا ينسى ما هو اللائق فى هذه المناسبات !

— تعنى أن أصطحب هدية ؟

— كدتُ أرغب إليك فى ذلك !

— أليس من اصطحاب الهدية بدّ ؟

— ذلك عمل يوحى به الذوق السليم !

— لن تكون الهدية أكثر من طاقة ورد ، كيفما اتفق ...

وانطلقا معاً إلى بائع الأزهار ، فأخذ الزوج يسير فى أرجاء الحانوت يتطلع إلى الرياحين المعروضة ... وما لبث أن أعرَضَ عنها ، وأقبل على الزهّار يسأله عن نوع خاص من الورد النادر ، فاستنظره البائع لحظات ليجلبه له من مكان قريب ، فرجع الزوج إلى صديقه ينتظر الورد المنشود فابتدره الصديق قائلا :

فيم وقوفك ؟

— فى انتظار الورد الذى طلبتُه !

— هل طلبتَ ورداً معيّناً ؟

— أجل ، طلبت نوعاً من الورد ، كنتُ أهديت إليها طاقة منه فى يوم الخِطبة ... المسألة مسألة ذوق ، لا أكثر !

فهز الصديق رأسه ، وقال :

هذا عهدى بذوقك دَوْماً ...

حمل الزوج طاقة الورد قاصداً فى صحبة صديقه إلى المستشفى ... وانتهى بهما الدرَجُ إلى الطبقة التى تقوم فيها حُجَرُ الوالدات ، فاستقبلهما ممشى فسيح ممتدّ تسطع أضواؤه فتزيد جوانبه سطوعاً ... الممرضات والأطباء فى ذهوب ومآب ، يحثون الخطا فى همة ومضاء . وهنا وهنالك زوّار تختلف سيماهم وتتباين شاراتهم ، فهم بين قلِقٍ حائر بدافع لحظات الترقب والاستطلاع ، ومبتهج استخفته البُشرى ، فترنحت أعطافه من المراح ...

فأخذ الزوج يتلفت حوله . وقد عاجلتْ محيّاه مَسحة من شحوب . وما كاد يجد نفسه عن كثب من إحدى الممرضات حتى أقبل عليها يواجهها فى اهتمام ، فيسألها :

أين تقوم حجرة زوجته ؟

ولم يكن فى وقت الممرضة فسحة للوقوف وإجابة السائل ، فاستمهلته حتى ترجع إليه لتصاحبه إلى الحجرة التى تعنيه ...

فانتحى هو وصديقه ناحية ينتظران . ومرت دقائق ظل فيها الزوج واقفاً فيما يبدو ، ولكنه فى حقيقة أمره مستوفز الأعصاب يتحرك فى موقفه حركات لو كانت خطا لانطوت بها المسافات الطوال ...

ولمح غير بعيد محفة يزجيها بعض الممرضات ، وقد اضطجعت فيها سيدة عليها أعراض المخاض ، فرنا إليها الزوج متفحصا متحققاً ، وهو يهينم :

ليست إياها ...

وما كادت تتوارى المحفة بمن تحمل ، حتى ندت صيحة نسوية قرعت سمعه ، لا يدرى لها مأتى .

وأحس فى هذه الصيحة رنين مكروب على شفا الهلكة ، ينشد الغوث ...

ورأى نفسه على الرغم منه ، يقبل على صديقه ضاغطاً يده ، وهو يقول .

ما هذا الصوت ؟

— صوت حامل على وشك الوضع ...

فازداد الزوج ضغطاً ليد صديقه ، وهمهم :
أيكون صوتها ؟
فلاطف الصديق يده مبتسما ، وقال :
أنتَ منى بصوتها أدرَى !

فترك الزوج صديقه . وخطا إلى نافذة قريبة ، وأسلم نظراته للأفق ، وطال به الوقوف على هذه الحال ، وقد حوّم به الفكر فى أودية شتى ، وعبرَ به الزمن إلى عهد تقضّى :

شاطىء « سيدى بشر » يزخَر بالروّاد ، صفحة الماء تضطرب بالأجساد وهى تغالب العُباب ... هو فى مصطخب الموج يعلو مزهواً ويهبط... حارس الشاطىء المعهود فى قميصه يتوسط قارب النجاة...ذلك الرأس يطفو ويرسب ، تنسكب خصلات شعره الفاحم على صفحة الماء ...

وبغتة دوّت فى أذن الزوج صرخة استغاثة علقت بقلبه ، فغامتْ عينه ، وأحس فى غشيَّة حلمه كأنما هو يصارع الموج مندفعاً للحاق بالغريق . . .

وفى لفتة عصبية غير مقصودة ، ألفى صديقه مقبلا عليه ، فلم يلبث أن اندفع إليه ، يقول له :

إنه صوتها حتما .. إنها هى ... إنها تنشد معونتى بلا ريب !

وجاءت الممرضة تدعوهما أن يتبعاها ، فقادتهما إلى حجرة الزوّار ، وقالت للزوج فى إشراق :

لتطمئن ... كلّ شىء على ما يرام ... سأدعوك إلى حجرة الوالدة بعد قليل ...

وبارحت حجرة الزوار على عجل ، فقال الصديق للزوج :

ما بك ؟

فأجابه الزوج ، مُـرْعَـش الصوت :

لا شىء ... لا شىء ... إنما هو تهافت أعصاب ، من وفرة ما قمتُ به اليوم من أعمالى الخاصة . آن لى أن أخفف عن نفسى متاعبَ العمل .

ولبثا فى الحجرة فترة ، لا يتناقلان الـكلام ، والزوج ساهم يُـرْهف السمع ، ويتلقط ما يَـنْـأم من الأصوات .

إن صَـدَى الصرخة التى سمعها منذ لحظات ، ما فتىء يترجع فى سمعه . . .

إنه صوتها بلا ريب ...

شد ما تتألم ، بل شد ما تألمتْ إبّان الحمل ...

إنها نحيفة لا قِـبَـلَ لها بمثل ذلك المجهود ...

لم يرها منذ أشهر خلت ...

أكانتْ فى حاجة إليه ، فأخذتها العزّة ، وأبتْ عليها كبرياؤها أن تطلبه ؟

ليس ينسىَ ما لها من ابتسامة وديعة تنم عن سريرتها النقيّة التى تَنزِلّ عنها الضغائن والأحقاد ...

صدى الصرخة يعاود أذنه فى لجاجة وإلحاح ...

لن يصيبها مكروه ، ما دام قادراً على أن يذُود عنها ذلك المكروه ! ...

ونهض مستوفزاً يقول لصديقه :

هيا بنا ننظر ماذا تمّ فى الأمر ...

وفيما هما ماضيان إلى الباب ، قدمت عليهما الممرضة ، بين يديها لفيفة بيضاء ، تحملها فى عناية وتحفظ . وقالت متهللة الأسارير وهى تقرب اللفيفة إلى الزوج ، وتميط عنها اللثام :

انظر ... ألا تراها قمراً يتواضع لها القمر ؟ !

فحدق الزوج فيها . وقد عاجلته البهتة ، وسأل :

من تكون ؟

فتضاحكت الممرضة ، ومالت بوجهها إلى صديق الزوج ، تقول له : انظر كيف يتجاهل ؟ ...

وتطلع الصديق إلى محيّا الوليدة بين ألفافها ، وصاح بصديقة

الزوج قائـــلا :

نسخة منك وَفْق الأصل !

غرنا الزوج إلى الوليد ، يتوسّمها فى صمت واجف .

حقاً إن فيها الكثير من مَشابِهه وملامحه …

ولكن ذلك الفم المتميز : لمن يكون ؟

وتلك الشفة العليا ذات النتوء : أيّة شفَةٍ تُشْبِه؟

وطارت به الذكرَيات إلى يوم اجتلى فيه شبيهَ تلك الشفة . . . يوم أنقذ فتاته من الغرق …

يومَ انتشلها من بين أطباق المـــاء ، وحملها إلى ظُلّتها على الشاطىء ، يسعفها بالعلاج . . .

لقد كان أول ما استرعى نظره منها يومئذ تلك الشفة ذات النتوء …

اشدّ ما كان وجهها ساعتئذ شاحباً بالغ الشحوب …

كانت مشرفة على الهلاك !

ورفع بصره من فوره إلى الممرضة ، يقول : كيف حالها ؟

إنها بخير … وإن كانت قد عانت عسيراً من المجهود …

ــ ألم يحِن الوقت لزيارتها؟

ــ كما تشاء … إنها فى الحجرة التالية …

وهمّ الزوج بالخروج . فاستوقفه الصديق قائلا :

لا تنسَ طاقة الورد !

فجعل الزوج يتلفت باحثاً عنها ، ولكنه لم يعثر عليها ، وجَدّ فى البحث ، فذهب بحثه سُدى ...

فوقف لحظة حيران قلقاً ، ثم وقعت عينه على الوليدة ، فأشرق وجهه بغتة . ودنا من الممرّضة يجتذب اللفيفة من يديها ، وانطلق إلى حجرة الزوجة فى خطاً سراع ...

وما إن دخل الحجرة حتى احتبست خطاه ...

لقد طالعته زوجه ... ممدودة على سريرها ، بادياً شحوبها فجعل يرقبها مهتز الأوصال ...

وتلاقت عيناهما .

كانت نظرتها إليه كليلة وانية ...

وألفى خطاه تتهادى به إلى السرير ، على استحياء ...

وإذا بوجه الزوجة تكسوه سحابة من الشجو ، وتتخايل عليه اختلاجة إجهاش ...

فما هى إلا أن وجد الزوج نفسه يُهْرَع إليها ، ويضع اللفيفة مترفقا فى حضنها ...

وانحنى على يدها يبثها قبلة عميقة زاخرة !

مَوْعِـد

كان اليوم يوم الجمعة ، والوقت منتصف الحادية عشرة صباحاً حين جلس « توفيق بك سعودى » يدخن ويرتشف القهوة على مهل . وهو فى الفترة بعد الفترة ينقل نظره فى جريدة مبسوطة بين يديه ، إذ يستمتع بالراحة بعد أسبوع شاق قضاه يعمل فى وزارة المالية ، وعن كَثَب منه جلستْ زوجه « بهيجة هانم » منكبّة على آلة الحياكة تخيط ثوباً لها .

ورفعت الزوجة بصرها تقول لزوجها : نسيتُ أن أخبرك بأن « سامى » قدم بعد خروجك أمس ، فدخل حجرة ملابسك وانتقى من بين أربطة الرقبة رباطاً راقه .

فقهقه « توفيق بك » وهو يقول :

لعل ما أعجبه هو الرباط الأزرق ذو النقط الحُمر .. !

— هو بعينه ...

— كنت أقدّر ذلك ؛ فقد اشتريته منـــذ أيام قليلة ، ولم أستعمله بعد .

ووضع « توفيق بك » رِجلا على رجل وأتم قوله : ثم ماذا ؟

— لقد عرفتَ أمر الخُفّ ...

— رأيته في قدمه ..

وجعل « توفيق بك » يهزّ ساقه عابثاً ، ثم قال :

عن يأخذ إذا لم يأخذ مني ؟ ...

فتَطلق وجهُ الزوجة بابتسامة نيرة ، وعادت إلى ثوبها تحيكه .

وأقبل « توفيق بك » على الجريدة يقرأ ، ولكنه ما عتم أن ألقاها جانباً وهو يغمغم :

لا شيء إلا أنباء الحرب والغارات ... كأنما خلتْ الدنيا مما يستحقّ أن يُروَى ... وَوُلاة الأمور لا يُعنونَ بغير ذلك من الشئون ، أما حالة الموظفين ، والنظر في إنصافهم ومنحهم من الدرجات ما يستحقون ، فذلك ما لا يتطلب منهم أقل العناية والاهتمام !

فأجابتـــه زوجه وهي تدير آلة الحياكة وتتبع بنظرها حركة الإبرة :

ومذكرتك التي تطلب بها الترقية ... ماذا تم فيها ؟ ...

- لقد أعددتها ، ولكن يجب أولا أن ...

وسُمع « التليفون » يدق ، فقال « توفيق بك » على الأثر :

أكبر ظني أنه « محفوظ بك » ، لقد وعدني أن يكالمني اليوم

في شأن هذه المذكرة.

— أسرع إذن ... !

وكان « التليفون » في ركن بعيد من الردهة ، فنهض إليه « توفيق بك » ، وظلت زوجه على حالها منصرفة إلى ثوبها تخيطه .

وجذب « توفيق بك » السماعة وهو يقول : « ألو ! »

فإذا بصوت حلو النغمة لين النبرة يجيب :

« ألو « ... مَن المتكلم ؟ ...

فأجاب فى تحفظ : هنا منزل « توفيق بك سعودى » .

فقال الصوت الناعم : أموجود « سامى بك سعودى » ؟

فأجاب « توفيق بك » فى لهجة حازمة :

وماذا تريدين من « سامى بك سعودى » ؟ ...

— أريد أن أعلم أولا أموجود هو أم غير موجود ؟

فقال « سعودى بك » فى عنف : غير موجود !

فتلطف الصوت الناعم وقال :

لا بد أنك « عيسى الفراش » ، لا تحتدّ يا « عيسى » ، أرجو منك أن تخبر سيدك « سامى بك » أن موعدنا اليوم سيكون تجاهَ دار البريد فى السادسة مساء . لاتنسَ ... سعيدة

يا « عيسى » . . .

وهمّ « توفيق بك » أن يقاطع المتكلمة ، فخانه صوته ، فرمى السماعة مكانها وهو يهدر : وقاحة . . . قلة أدب . . .

ثم عقد يديه خلف ظهره ، وانطلق يصيح :

يا « عيسى » . . . ياولد يا « عيسى » . . . أين أنت يا كلب . . . ؟

فسمع زوجه تقول :

« عيسى » اليوم مريض . . . وهو فى بيته معتكف . . .

فدمدم « توفيق بك » قائلا : فليذهب فى داهية .

وانبعث يصيح ثانياً : يا « سامى » . . . يا ولد يا « سامى » . . .

فقالت زوجه وعيناها موصولتان بإبرة الحياكة :

إن « سامى » مع أستاذ الرياضة فى حجرة الدرس . . .

ـــ مع أستاذ الرياضة ؟ !

واستأنف صياحه ينادى : يا « سامى » . . . يا ولد يا « سامى » . . .

فرفعت « بهيجة هانم » رأسها عن آلة الحياكة وقالت :

اتركه بربك يتمّ درسه فى هدوء . إن الامتحان قريب . . .

ـــ امتحان . . . هه . . !

وطفق يَذرَع الردهة ويداه معقودتان خلف ظهره وهو يغمغم بالألفاظ يمضُغها مضغاً ، فسألته زوجه :

ما بك ؟ ... أحدّثك « محفوظ بك » بشيء جـــديد في شأن المذكـــرة ؟ ..

ــ المذكرة ... المذكرة .. نعم .. نعم .

وما فتيء يذْرَع الردْهة بالخطا القلقـة ، ومضَتْ « بهيجة هانم » تستكمل عملها فى حياكة الثوب ، وقد فطنتْ إلى أن أمراً جدّ فى شأن المذكرة عكر على زوجها صفوه ، فحرصت على تجنب الحديث فترة حتى تسكن الثائرة .

ولبث « توفيق بك » يتابع سيره ذهـاباً وجيئة ، وسمعته زوجه يجمجم : أطفال لم يخرجوا بعدُ من البيضة تصـدر منهم هذه الأعمال ! . .

ــ من تَعنى ؟

ـ ابنك « سامى » ... هل أعنى غيره ؟ ... ابنك الذى حذّرتك مراراً وتـكراراً من تدليله فلم تصغى إلى قولى .

ــ ماذا جرى ؟

ــ لا شيء ... لا شيء ... « سـامى » آية فى الأدب والـكمال ...

وما زال يسير وقد وضع يديه فى جيب معطفه المنزلى . وما هى إلا أن رجَع إليها ووقف أمامها يقول : أنت التى أفسدتِه .

ما زلت تغمرينه بآيات المدح والإعجاب ، ولا تنفكين ترددين على أذنيه أنه جميل ، خفيف الروح ، غاية فى الجاذبية ، حتى حسِب نفسه « دون جوان » آسر القلوب !

ـــ ما هذا يا « توفيق » ؟

ـــ ألم تلاحظى عليه أنه أصبح الآن يُعنى بزينته أكثر من عنايته بدرسه ؟ لقد صار مكتبه أشبه شىء بمعرض شائق للعطور والأدهان ! . . .

ـــ إنه شابٌ ، وسنه تتطلب ذلك !

ـــ سِنّه تتطلب ذلك ؟ لعلك تزعمين أيضاً أن سنّه تلزمنا بأن نبحث له عن . . . عن خليلات . . .

ـــ أنت بلا ريب تهذى ! . . .

فتحول عنها ، وخطا قليلا ، ثم قفل إليها يقول :

قلت لك لقد سممتِ عقله بهذا المديح . . .

فابتسمت الزوج وقالت : ألا تعتز الأم بجمال ابنها ؟ . . . أليس « سامى » جميلا يا « توفيق » ؟ . . . ولكنى أعترف لك أنه لم يبلغ مبلغَ أبيه فى الوسامة مع أن قوامكما واحد . وعيونكما متماثلة . . . وهذا الحاجب والأنف والفم نسخة أصيلة منك يا « توفيق » . تكادان تكونان توأمين ! . . .

وانثنى عنها « توفيق بك » ، وترفقَ فى سيره ، بيد أنه لم يعقدْ يديه فى هذه المرة خلف ظهره ، ولم يضعهما فى جيب معطفه ، بل رفعهما فى سكينة وتؤَدَة إلى شاربه وأخذ يفتله فى عناية ! ... وعرّج على مرآة قائمة فى الحائط ، وراح يتراءى فيها ، ثم انعطف يمشى فى الردهة لا ينبس . وعنّ له أن يقصد حجرة « سامى » نقف إليها . وامتدت يداه تعبثان بأوراقه وأشيائه . وعثر فيما عثر على بضعة أعـــداد من مجلات أسبوعية . فاعتدل يتصفحها على عجل ، فاسترعت بصره صورٌ لبعض غانيات يعملن فى المسارح والمراقص وقد جلتهن الصورُ فى أوضاع خلابة ، فانهمك يتفرج، ورأى فى عقب إحدى الصور علامة مرقومـــة بالقلم الأحمر ، فأطال نظرته إليها ، وأسرع إلى ذهنه حديث « التليفون » وذلك الصوت الناعم الرقيق . فلمعتْ عيناه ، واندفع ينقر حافةَ النافذة ، ثم غمغم قائلا : سأفاجئه بصورتها ، وسيفتضح أمره ...

واقتطع الورقة من المجلة ودسها فى جيبه،ثم غادر مكانه وتوجه نحو الباب .. فعلقَ بصره بصورة ابنه على خُوان الزينة محوطة بقوارير العطر والأدهان . فتأمل قبالتها وقتاً وجعل يتفحصها ثم رفع حاجبه الأيمن ومط شفته السفلى فى استهزاء ، وترك الحجرة وهو يتضاحك .

وما إن بصُرت عينا زوجه به حتى بادرته قائلة : ومذكرتك ماذا قال فى شأنها « محفوظ بك » ؟ ...

— مذكرتى ! ... قال لى إنه عرض الأمر على الوزير ، ولكنى لم أعلم على وجه التحقيق ماذا تم حتى الآن ؟

واتجه إلى الشرفة وأسند يديه إلى حافتها وسرّح ببصره فى أجواز الفضاء . ثم أخرج من جيبه ورقة المجلة ، وجعل يتأمل فيها . وأسرع بطويها ، ثم أشعل لفافة من التبغ ولبث يتفرس فى دخانها ، ورجع إلى الردهة بخطا بطيئة ، وجلس على المتكإ وقد بسط الجريدة أمامه وظل وقتاً ينقل نظره فيها ، دون أن يقرأ حرفاً ... وسرعان ما صاح دفعة واحدة : أف لصوت هذه الحائكة ... ما أنكرَهُ ! ...

فرفعتْ « بهيجة هانم » بصرها إليه تتعجب ، بيد أنها لم تنبس . . . كان هذا أول اعتراض سمعته منه فى شأن هذه الحائكة ... وما هى إلا أن استأنفتْ حياكتها ، فغمغم « توفيق » فى حدّة : إن الراحة مفقودة فى هذا المنزل . وألقى الجريدة من يده ، ونهض إلى حجرته .

طرح « توفيق بك » جسمه على مقعد فسيح وأخذ يزْفِر ، ثم واتاه الهدوء رويداً . فانطلق يفكر فإذا به يعرضُ مشاهد من

حياته ، وأحس فى هذه اللحظة وحدها ما ساد حياته الرتيبة من خمول يستوجب الملل : المنزل والديوان والقهوة . وجوهٌ لا تتغير ، ونظام لا يتبدل ، وطابع من الحياة أشبه بطابع التلاميذ فى المدارس أو الجند فى الثُّكنات .. كان صوت الحائكة يهدر فى الردهة ، فصاح وهو فى مكانه لم يفارق مقعده :

أكاد أجن من هذه الحائكة . . .

وحينئذ قدم « سامى » على أبيه فقال له : هل طلبتنى يا أبى ؟

— نعم . طلبتك . . . أهلا وسهلا !

وزايل « توفيق بك » مقعده . واشتبكتْ يداه خلف ظهره ، وعاد سائراً فى الحجرة يغدو ويروح ، ثم مثل أمام ابنه ، وقال له وقد زوّى ما بين عينيه : إلى متى استهانتك بحق أبيك ؟

فدهش الفتى وتساءل : أى استهانة يا أبى ؟

— خفىّ من قبل ، ورباط رقبتى أمس ... إنك لتبيح لنفسك ما أعدّه افتئاتاً على ما يجب لى من احترام .

— الحق يا والدى أنه لم يكن لدىّ رباط على لون كسوتى الجديدة ، وقد استأذنتُ والدتى فى استعارة هذا الرباط الملائم ، فأذنتْ لى .

— أذنت لك .. تعنى أن لوالدتك حق التصرف فى ملابسى

كما تشاء ؟ ! ...

— لم أقل ذلك ... ولكننى أقصد ...

— آه ... لا . لا ... لقد بلغ الأمر حداً لا يطاق ...

— سأعيد إليك الرباط من فورى ...

— بعد أن استعملته ... شكراً .. وما شأن هذه الكسوة الجديدة ؟ ... لم أعلم بها من قبل .

— لقد نقلتُ إليك نبأها .

— لعلها الكسوة الخامسة أو السادسة التى تستحدثها هذا العام ، على حين أقتصر أنا على واحدة أو اثنتين ...

— إننى لا أستحدث كسوة إلا بأمرك ...

— بأمرى أو بغير أمرى ... لقد أصبحتَ الآن لا تُعنى إلا بملبسك وزينتك ... تحسَبُ نفسك أبهى الشبان رواء وأرشقهم قواما وأجملهم شكلا .. يجب أن تخلىَ رأسك من هذه الأفكار

— ما هذا يا والدى ؟ إننى ...

— يجب أن تهتم بدروسك . بدروسك وحدها ، وأن تعدل من سيرك ، وتقوّم من سلوكك ... أفاتك أن الامتحان قريب ؟

— إنى لا أغفُلُ عن الدروس يا أبى . . .

— هذه نصيحتى إليك . . . وما أبغى إلا نفعك . . .

وضرب يده فى جيب معطفه المنزلى غير عامد ، فلمستْ أنامله ورقةَ المجلة فأمسك بها وأبقاها مكانها ، ومشى يذْرَع الحجرة بخطوات قلقة وقال : إن والدتك قد أفعمتْ رأسك بألوان زاهية من المديح والإطراء ، فركبك الغرور وخيلت لك نفسك أنك « دون جوان العصر » .

وتضاحك وهو يردد :

ولكن أى « دون جوان » هـــذا ؟ . . . « دون جوان » لا يساوى بصله . . !

وربّت كتف ابنه فى مداعبة ساخرة وقال له : لا يغضبنّك كلامى ! إننى لا أعنيك وحدك ، بل أعنى هذه الطائفة المتطرفة من شبان اليوم . هذه الطائفة التى إن وازنت بينها وبين طائفتنا حين كنا فى مثل أعماركم ، ظهر لك البوْن شاسعاً . . . ومع ذلك فَلِمَ نذهب بعيداً ؟ . . . تأمل قامتك المقوّسة ووجهك المعروق ثم ارجع بصرك إلى قامتى المنتصبة ووجهى الرّيان لقد أفسدكم التخنث ، على حين دفعتنا الرجولة الحقّ إلى المكانة التى نستحقهـــا . . . ذاكرْ دروسك . . . إن الامتحان قريب . . .

وضعت مائدةُ الغداء الأبَ والزوج والولد. وكان « توفيق بك » صموتا موزع الفكر ، وحضر الطعام ، فأكل الثلاثة فى جو يسوده السكوت المطوىّ على قلق وحيرة .

وزفر « توفيق بك » مدمدمًا :

كل يوم « قورمة » ... أليس فى الدنيا غير « القورمة » ؟ ...

فقالت زوجه وهى تنظر إليه متعجبة :

إنه اللون الذى تستطيبه وتفضله على غيره من الألوان ...

ــ ولهذا السبب تقدمينه إلىّ كل يوم ... إن أشهى الألوان وألذها إذا قدم كل يوم كان جديراً أن يُعافَ ويكرَه ...

ــ ولكننا لم نطبخ « القورمة » منذ عشرة أيام ...

ــ تعنين أننى كاذب فى دعواى ... ألا يحق لى أن أنتقد الطعام الذى آكله ؟ .. أتريدين أن ترغمينى على أكل مالا أشتهى ؟ ...

ــ إنك ثائر الأعصاب اليوم يا « توفيق » ولا يمكننى أن أبادلك الحديث .

فصاح على الأثر : إن كلامك هذا هو الذى يثير الأعصاب .

ــ إذن سألزم الصمت إن كان هذا يروقك .

ــ لن تسمعينى ألفظ كلمة واحدة . استريحى !

وفى الساعة الخامسة جعل « توفيق بك » يرتدى ملابسه ، فإذا به ينتقى أبهى ما عنده ، وكان يختلس النظر إلى ساعة يده فى الفينة بعد الفينة ، وأحكم فتلّ شاربه وتضميخ شعره بالعطور والأدهان .

ودخلتْ عليه زوجه تقول : إنك بلا ريب تعدّ نفسك « للسينما » . سنذهب ، معاً على حسب الاتفاق ...

فقال لها وهو مهتمّ بعقد رباط الرقبة :

ولكن يا « بهيجة هانم » لدىّ موعد مع « محفوظ بك » فى شأن المذكرة .

ـــ المذكرة ... ما هذا القول ؟

فربّت خدها مداعباً ، وقال : لا تستائى يا عزيزتى ... إنه موعد مهم جداً ... أما « السينما » فيمكن أن يصحبك فيها « سامى » .

فغمغمتْ « بهيجة هانم » : « سامى » .. لقد أخبرنى بأنه سيذاكر دروسه مع صديقه « فتحى » ...

فوقف « توفيق بك » وقفــــة اعتراض ، وقال : درس فى الصباح ... ودرس فى المساء ... أنسيت أن اليوم يوم الجمعة ؟ ... يوم الراحة والاستجمام ... إن الولد يقتل نفسه

بهذا العمل المضنى . . . !

وأصدر « توفيق بك » أمره إلى ابنه بأن يلغى مذاكرته مع صديقه « فتحى » ، ويصحب أمه إلى « السينما » لأنه شديد الحاجة إلى رياضة ذهنية تريحه من كدّ المذاكرة . . .

وغادر « توفيق بك » المنزل بعد أن رشَق وردة حمراء فى عروة سترته ، وسار فى خطا المتظرّف الرشيق ، ووِجهته ... دار البريد !

سِرُّ الأميرِ الهنْدِي

تحية لذكرى المرحوم «علي طبنجات»

سمعتُ بالشخصية المسرحية التي سَمَرَتْ بحديثها الصحف، مُغدَقةً عليها ألقـــاب الإشادة والإعجاب، وهي شخصية الأمير الهنـدي «أوتا كاما» الذي يعرض دَوْره الهزليّ البارع في «سينما الـكوا كب»...

فهفا بي الشوق إلى أن أقصد دار «السينما» في إحدى الأماسيّ، لأنعمَ بشهود ذلك الفصل.

وما إن بدا الأمير يتواثب في خفة على المنصة، حتى ثارت عاصفة من التصفيق والحفاوة...

وما كاد بصري يأخذه، حتى عَرتني هزة

هذه الملامح والسمات معروفة لي بلا ريب...

هذا الوجه الأعجف المسنون...

وذلك الأنف المدَلّى...

وتلك القامة القصيرة المرنة ..

ليس شيء من ذلك بالجديد في عينيّ ..

ولكن ما خَطبُ هذه اللحية المشذبة الخفيفة المصفرة ؟!...

وتوهم بى الفكر غيرَ قليل ، تختلط علىّ الأشباه ، وأنا من أمر هذا الأمير فى حيرة وعجب !...

ليس هذا الرجل غريباً عنى ...

أيمكن أن يكون مَنْ أعنى ؟..

أهو حقاً ؟ ...

إن من يتجه إليه بالى قد طواه الردَى منذ أعوام ، وأصبح فى ذمة النسيان ..

انطلق الأمير الهنـــدىّ يمارس ألاعيبه ، فاستهوانى بلطائفه وأفانينه : وما يشيعه من جوّ مَرح ينتزع الضحكَ من أعماق القـــلوب ..

فأنسانى ذلك ما كنت أفكر فيه من اشتبـاه شخصيته علىّ ... واندمجت مع النظارة فيما ينعمون به من أنس صَخّاب .

لقد كان صديقنا « أوتا كاما » يتألق فى لبوسه الحريرىّ ، تنعكس عليه ألوان الأضواء . وعلى رأسه عمامته الهندية المتطاولة الموَشّاة ، آمنة أن تسقط ، وإن علا بها وهَبط ، وإن دار بها فى الهواء دَوْراته « البهلوانية » الخواطف ...

وفى الفينة بعد الفينة تنبعث من حلقه أصوات متباينة ، يحاكى

بها هديل الحمام حيناً ، ونُعاب البوم طوراً ، وصراخ القرود تارة ، ومُواء القطط تارة أخرى . . .

وقد يدَعَ ذلك كله ، فتراه دَفعة واحدة قد خيّل إليك بما يصطنع من نبرات متخالفة ، ولهجات متباينـــة ـ أنك تستمع إلى مجلس صاخب لأناس اشتد بينهم النقاش بمختلف اللغات . . .

ولا يلبث أن يفجأك بدورات متلاحقة يمثل لك فيها أشهر رقَصات الأمم ، غيرَ غافل عن إظهار حِذْقه وبراعته فى رقصة البطون ! . . .

وإنه ليبلغُ الذروة فى ختـام دوره ، إذ تنشقّ الأرض عن الشيطان فى صورة مارد سمهرىّ القامة ، بائن الطول ، كأنه فى ثوبه الأحمر القانىء لسان من نار . . .

فيتصدّى له الأمير الهندىّ ، وسرعان ما ينشَب بينهما عراك يلتحمان فيه ويختلطان ، فلا تدرى فى زوبعة المعركة الدائرة : أيهما الأمير وأيهما الشيطان ؟ . . .

ولا يلبث الشجار أن ينجلى عن فوز ذلك القزم الهندىّ ، بعد أن تورمت عيناه ، وتمزقت سراويله ، وهو يجرجر المارد ، ممسكاً بقدميه ، على حين يتزايل شبحهما عن النظارة بتزايل الأضواء ، وتراخى الأستار ، وسط عاصفة هَوْجاء من التصفيق والهتاف . . .

وتبع ذلك الدور عرض رواية سينميّة على الستارة البيضاء ، لم تستطع على طلاوتها أن تنسيني مباهج تلك المعابثات التي راعنا بها القزم الهندىّ الساحر ...

وفيما أنا أبارح دار السينما ، شهدت لمةً من الناس قد تجمهروا عند الباب ، وقد انبعث منهم التصفيق والضجيج ، وإذا بعينيّ تلمحان القزَم الهندى فى لبوسه الحريرى اللامع ، وعمامته الطولى ، ولحيته الهفهافة المعصفرة ، يخترم الصفوف ، تتهادى خطاه ، وهو يوزع بسماته الرفيعة بين الجموع ، ويبعث تحيانه إشارات رشيقة يتجلى فيها الظرف والكياسة ...

رَنوْتُ إليه أتأمله ، واتفق أن التقتْ نظرتى بنظرته ، فسرعان ما لمحتُ فى عينه اختلاجة طارئة ، وأحسستُ بدافع يحدونى أن أقبل عليه أحييه ... ولكنى شعرت به يشيح عنى بوجهه ، ويتابع سيره ، ثم ارتقى سيارته الفخمة ، وغاب بها بين أطباق الزحام ...

وبينما كنت فى طريقى إلى البيت ، عَاوَدَتْنى الدهشة والعجب من ذلك التشابه الناطق بين الأمير الهندىّ وبين صديقى القديم « أبى على الأرتيست » ، فتملكتنى صـــورته ، واستبدتْ بى ذكرَيات أيامه ...

وهل أنسى آخرَ موقف له على مَسرَحه الخشبى الوضيع الذى

شَيّده فى « سيدنا الحسين » بما وَرِثه من مال أبيه ، وكيف كان يمثل دوره فى مأساة عنيفة انتهت بأن شيعه الجمهور بألوان من القذائف وضروب من صياح الاستنكار وصفير الاستهجان ؟ ! . . .

وكانت آخر لقية رأيته فيها ، وهو موسّد فراش المرض فى حجرته المهلهلة التى يفصح كل ما فيها عن الإفلاس والاندحار . . .

ما أنسَ لا أنسَ وجهه المتقبّح ، وقد انتابته غيبوبة مرضه الأخير ، فاندفع فى تخليطه يهذى بمشروعه الجسيم : إنشاء مؤسسة للتمثيل على أحسن طراز ! . . .

* * *

وفى الغداة ، وأنا أتناول فَطورى ، صلصل «التليفون» . وإذا المتكلم كاتب سر الأمير الهندىّ « أوتا كاما » يُنهى إلىّ رغبة الأمير فى لقائى الآنَ بفندُق « شبرد » ...

وكانت مفاجأة غريبة أسلمتنى إلى تفكير حائر لم ينته بى إلى قرار . . .

ما خَطبُ تلك الدعوة ؟

وماذا يبتغى الأمير منى ؟

وكيف عَرفَنى ؟

وكنتُ كلما تقاسمتنى هذه الأفكار ، ازددتُ شغفاً وتطلعاً

إلى هذا اللقاء ، وجعلت أتعجل الخطا ، وأنتهب الطريق ، حتى إذا بلغتُ باب الفُندق ، ألفيتُ كاتب سرّ الأمـــير يرتقب محضرى ، فتقدمنى من فوره إلى مَثوَى الأمير ...

وما كدتُ أخطو فى الحجرة حتى رأيتُ « أوتا كاما » ينهض دفعة واحدة لاستقبالى ، وقد بسط لى ذراعيه ، وهو يصيح : أهلا وسهلا ...

فوقفتُ مشدوهاً أحدّق فيه ، وكأننى قبُالة شَبَح قد انشقتْ عنه غياهبُ المجهول البعيد . وهمهمتُ : من أرى ؟

فملا صوته يقوله : صديقك القديم ، ألا تعرفنى ؟

ـ « أبو علىّ » ؟ !

فأقبل علىّ يعتنقنى ، ويشد على يدى ، ورأيتنى أقول له : لقد شهدُتك البارحة ...

ـ وأنا أيضا تبينتكَ بين الناس ...

ومال بوجهه قليلا ، وهو يدعك يديه . ثم قال : الموقف لم يكن مواتيا لملاقاتك !

ثم دعانى إلى الجلوس ، واتجه إلى منضدة قريبة ، فتناول منها قدحا قدمه إلىّ قائلا :

تذوق هذا الشراب المندى ... ليس فيه عليك ضَير ...

فأمسكتُ بالقدح ، وقد انسرح بصرى ، وأنا ساهم أغمغم :
ولكن .. كيف كان ذلك ؟

فأطلق الصديق ضحكة مجلجلة ، وقال : لعلك تعجَبُ من لقائى الآن ، بعد أن غيبتنى أطباق الثرى ... يُحيي العظام وهى رَميم !

ثم أخذ يدى يضغطها ، واكتسى وجهه مَسحة الجد والتفكير . وقـــال :

لقد متّ حقا ، مات صديقك « أبو على » الذى كنت تعرف من أمره كل شيء ... ولقد بُعثتُ اليومَ بعثا جديداً ... تلك حياة طويتها ، وهذه حياة أخرى أحياها ثانيا ...

ومدّ يده إلى علبـــة اللفائف السوداء الفاخرة ، وأعطانى واحدة منها . وأخذ لنفسه أخرى ، وأشعل اللفافتين بقدّاحة مُذهبَة ثمينة ...

واسترخَى فى ضجعته ينفُث ضَباب الأنفاس ، وهو يقـــول :

ما أجمل أن يستمرىء الإنسان أطايبَ الحياة ! ...

وشاع الصمت بيننا فترة وأنا أتفرس فيه ؛ وهو يستمتع باجتذاب الأنفاس من لفافته ، وسمعتهُ يقول وهو تائه الفكر ، شارد النظرات :

كان بودّى أن ألتى بقيةَ الرفاق ، وأن أزور معاهد الذكرَيات ... ولكننى أريد أن أستبق لنفسى حياتى الجديدة ، فلا أشوب صفوها بنبش الماضى . ذلك الذى كابدتُ من أيامه ما كابدتُ !

ـ ألستَ راضيا عن حياتك الأولى ؟... لقد كنتَ فيها مجاهداً وكانت لك مُثل عالية تناضل فى سبيل تحقيقها ...

ـ لم يكن ذلك كله إلا عبثا وأضغاث أحلام . لندَع الميت ينطوى عليه قبرُه ! .

فجرعتُ من القدح جرعة أتذوقها على مهل ، وقلت خافض الصوت : حقا إنه لسرٌ عجيب !

فتطلق وجهه ، وقال :

« ما زلت أنتَ كعهدى بك ، طَلاعاً إلى التعرف ، شديد الفضول . . .

لن أبوح بمكنون أمرى لغيرك ، فكن له صائنا ...

إن هى إلا أيام قلائل أقضيها هنا فى وطنى الأول ، ثم أواصل التطواف فى مختلف الأصقاع ...

لقد شهدتَنى آخر مرة وأنا على فراش الاحتضار ، أعالج

سَكَرات الموت ... وما كان لك أن تعرف من أمرى بعد ذلك أىّ شىء !

لا تنتظر منى أن أجاهرك بالكثير مما غاب عنك ...

بحسبك أن تعلم أنى بعد أن ذاع مَنعاى بوقت لا أدرى أقصيراً كان أم غير قصير ، شعرتُ ببعثى ثانية فى مدينة « الأقصر » ... وكنت لا أكاد أجدُ لى مأوى ، وتدهورتْ بى الحال أسوأ التدهور ، أمسك الرمق بالكِسرَة بعد لأى ، وأمتهن أرذل المهن استحطافا للقوت ...

وكنتُ ساعةً على رصيف النيل ، أتملى مَغربَ الشمس ، وأشباحُ السفن تنساب على متن المـــاء غادية رائحة ، تكسوها صبغة الشفق ، وكأنها بما تعكسه من ظلال قائمة تحمل بين طياتها طلائع الليل ...

وبينما أنا مستغرق فى تأملاتى ، أعرض حياتى الماضية ، وأوازن بينها وبين أيامى الحاضرة ، إذ شعرتُ بيد تلاطف كتفى ، وإذا أنا أمام رجل أجنبىّ مهندم ، حليق اللحية ، ناصع البشرة ، يرتسم على وجهه وَشْمُ السنين ...

فقال لى فى لهجة مصرية مألوفة : هل لك أن تكسب الليلة « ريالا » ؟

فقلت على الفور وسار الجوع يلهبنى بكل سرور ... نظير ماذا ؟

فأخذ بيدى ، وسار معى على الرصيف ، وهو يقول : الأمر هين لا يكلفك شيئاً ... ليس عليك إلا أن ترتدى الحلة الرسمية السوداء والقبعة العالية ، وتخطر على المسرح بضع دقائق !

فثارت بى ذكريات خالية ، ذكريات المسرح ، ومواقفى على منصته ...

أية مفاجأة هذه التى تدعونى أن أصل ما انقطع من حياتى الفنيـــة ؟

فوقفت أشرع نظراتى إلى الرجل ، وقلت :

ليس المسرح غريبا علىّ ... تستطيع أن تركن إلىّ ... وسترى من أمرى عجبا ... اشرحْ لى ما ينبغى أن أضطلع به من مواقف البطـــولة ...

فأخــــذ الرجل بيدى ثانية يتابع بى السير ، وانطلق يشرح الدور الذى اختارنى له ، فتبينتُ أنه يريدنى لموقف هازىء أغدو به أضحوكة للناظرين ...

فأنفتُ ذلك كل الأنفة ، واستيقظتْ كبريائى تحمينى أن أذعن لهذه السخرية التى تجافى الكرامة ...

وباطلا حاول الرجل إقناعى ، وتهوين الأمر علىّ ، حتى لقد اضطررتُ أن أردّه عنى ، فأغلظتُ له فى القول . . .

وكلما أصررت ، ازداد بى إلحافاً ، وهو ينظر إلىّ فى ملاطفة ، ويبتسم لى فى رفق . . .

وما زال بى ، حتى قلت له فى لهجة حاسمة :

هيهات أن أظهر على المسرح إلا فى الموقف الذى هيأتنى له العناية الإلهية ... لقد خُلقتُ لأداء رسالة « المأساة » !

فألفيته يتأملنى مليّا ، وابتسامته تلتمع على محياه ، وقال :

ليست هذه أول ساعة رأيتك فيها ، فإنى رقَبتك أياماً موصولة ، وفطنت إلى النوع الذى تجيده ، ويقينى أن العناية الإلهية إنما هيأتك لغير « المأساة » ... إنى رجل قد بلوتُ المسرح ، وأبلتنى التجاريب ، فلتطمئن إلى اختيارى ، وأؤكد لك أنك لن تَندَمَ على مطاوعتى !

فصحت حَمِيّ الصوت ، راجف الأوصال :

« المأساة » وإلاّ فلا !

فنظر إلىّ الرجل نظرة إشفاق وقال لى :

شأنك وما تريد يا صاحبى ، وهاك عنوانى . . إن شئت أن تراجع نفسك ، وترضى ما عرضته عليك ، فأنا فى انتظارك ،

أرحّب بك ...

ودفع إلىّ بطاقته ، وانصرف عنى ...

فوقفت أشيع شبحه يطويه الظلام ...

ثم أدرتُ بصرى إلى النيل ، أتبين فى غير وضوح فلاع السفن تميد فى الأفق ؛ كأنها أشباح مخيفة توشك أن تهجم علىّ ...

وتناهتْ إلى سمعى أصوات المجاديف ، وهى تقرَع الماء قرعها المتواتر ، فتبعث فى نفسى الوحشة والاكتئاب ..

ووجدتُنى أتنحى عن الشاطىء ، ويداى معقودتان خلف ظهرى ، وأنا خافض الرأس ، يتوزّعنى خليط الهواجس والأفكار ..

وأحسستُ بين جنبىّ معركة الجوع تدور رَحاها فى صَخب وعنف ...

مهما يكن من أمر ، فلن أذيلَ فنى ، ولن أشترى بمثلى العالية ما يُعرَض علىّ من قُوت وَضيع ، ومجد رخيص !

ولكن ... لنتدبر الأمر على هِينة ورِسْل . .

ذلك الرجـــل الأجنبى يريدنى على أن أظهر فى موقف فكاهى ...

أليست الفكاهة مُعترفاً بها فى التمثيل ؟

أليس للمسرح أبطال « الملهاة » ؟

أليسوا هم وأبطال « المأساة » على قدم المساواة ؟

وتعالى من أحشائي صوت الغوث ...

وطوف بمخيلتي أبطال الأفاكيه والمهازل في عالم الفنّ ، يعرضون أدوارهم أمام عينيّ ...

فرأيتني أستوقف شبح «شارلي شابلن» في مواقفه المشهورات ، لم يَدَعْ حركة إلاّ قام بها ، ولا وسيلة إلا ابتغاها ، انتزاعاً للضحك ، وبعثاً للبهجة والإيناس .

على أية حال لو قُدر لى أن أتدلى بنفسي إلى مواقف هؤلاء الأبطال المضحكين ، فلن يكون ذلك إلا في مثل هذا البلد الذي أنا فيه ، غريب لا يعرفني أحد ...

وأخرجتُ بطاقة الرجل ، أقلب فيها النظر ، على سبيل التعرف ، فشعرتُ بخطاى تَطوى الطريق إليه ...

وكان نجاحي في تلك الليلة على المسرح تقريراً لمصيري !

لقد ترامَيتُ في خضمّ حياتي الجديدة ، بدافع لا طاقة لى بردّه ، وتوالت الأيام ، أواصل الرحلات والأسفار ، يسلمني بلد إلى بلد ، ونجمي يزداد من سطوع ، والنعميَ تُقبل علىّ بغير حساب ، وأنا أقوم بدوري الفكاهيّ الجديد ، منتحلا شخصية أمير هنديّ ...

لقد بدأت الغِشاوَةُ تنقشعُ رُوَيْداً عن عيني ، فأبصرت نفسي

على حقيقتها ، وتوضحتْ لى عبقريتى فى ميدانها ، وعلمتُ أن مهمتى الأصيلة على المسرح هى تلك المهمة التى رأيتَها أنت منى البارحة ... أن أرقص ، وأن أدور ، وأن أوالى هذه الأفانين من المعاكسات والمشاحنات ! ... »

واستبقانى صديقى « أبو على » ـ أو بالأحرى : أمير الفكاهة الهندىُّ ـ ساعة ، نعِمنا فيهـــا بأطايب الأحاديث ، وتذاكرْنا سوالف الأحداث ...

وتركته مُـواعداً إياه أن نلتقى فى القريب ، فصدَفتْ بى عن المبادرة إلى إنجاز الوعد شواغلُ لم أستطع لها دفعاً ...

وصبحَ يوم قرأت فى صحيفة سيارة أن الأمير الهندىّ « أونا كاما » بارح « القاهرة » على متن إحدى الطائرات ، تلبية لدعوة مفاجئة تلقاها من إحدى الدوائر الفنية فى الخارج ...

وَعلـّقتْ الصحيفة على هذا النبإ تعليقاً تناولت فيه حياة الأمير الهندىّ ، فصورتها صورة مرقشة محشوة بالأكاذيب ...

وختمت تعليقها مطنبةً فى الإشادة بفن الأمـــير ، متمنيةً له بأطيب الأمانى ...

فوضعتُ الصحيفة جانبـــاً ، تتخايل ابتسامة شاحبة على شفتى ...

ثم وجدت يدى تدلف إلى أحد أدراج مكتبى ، عابثة بما يضم من أوراق ، وكان من بينها مجلة قديمة العهد ، ورأيتنى أقلب صفحاتها ، فوقعتْ عينى على نبذة تُعلق بها المجلة على الرواية التى ظهر فيها « أبو على الأرتيست » يوم بَنى مسرحه الخشبىّ الوضيع فى حىّ « الحسين » ...

وجعلتُ أقرأ تلك النبذة ، فهالنى ما فيها من نقد مرّ . وتجريح بالغ القسوة ، وسخرية شديدة اللذع ، وألقاب ذميمة فى غير رحمة...

وكان ختام تعليق المجـــلة نداء حارًّا إلى رجال الأمن أن يسوقوا ذلك المأفون إلى مستشفى المجانين !

ونهضتُ أشعل لفافة ، وقصدت إلى النافذة ، أسيمُ النظرَ فى الأفق ...

ما أكثرَ أمثال « أبى علىّ » فى الناس !
ما أحوجهم إلى أن يموتوا كما مات ...
وما أسعدهم بأن يُبعثوا كما بُعِث !

حَربٌ خاطِفة

١ — برقية إلى الآنسة ع . ك. بجاردن ستى أول سبتمبر :

« أحبك !...

هى كلمةٌ واحده لا أقولُ غيرها ، جَرْياً على أصول المنطق الحديث وملابسات العصر الحاضر .

أحبك ...

كلمةٌ حوت عناصرَ السرعة والتركيز .

نعم ، أحبك ، ولا تعنينا التفاصيلُ الآن !

م . ن »

٢ — برقيةٌ إلى الآنسة ع. ك. بجاردن ستى بتاريخ ٢ سبتمبر :

« إن حب سنة ١٩٤٣ حبٌ يهبط على القلب كما تهبط القنبلةُ من الطائرة قاذفة المفرقعَات ، وهذا هو شأن حبى .

رأيتك فى جهة ما ، وفى ساعة من ساعات الحياة . ومن ثمّ تكلم القضاء ، فأصدرَ حكمه الذى لا يُردّ .

أهواكِ يا معبودتى ! م . ن »

٣ — برقية إلى الآنسة ع. ك. بجاردن ستى بتاريخ ٣سبتمبر :
« إنى أعرفك، ولكن أنت لاتعرفيننى . ماذا يُهم ؟!
وقد أحببتك ، وستحبيننى ...
إنها إرادتى،وهى أيضاًإرادتك. وإرادتُنا كليناهى إرادةالقدر!

م ن »

٤ — برقية إلى الآنسة ع. ك. بجاردن ستى بتاريخ ٤ سبتمبر :
« توقعى غداً أمراً خطيراً.
مفاجأةٌ ليس بعدها مفاجأة ...
لا تفاصيلَ اليومَ .
أعبدُكِ يا غرامىَ الدائمَ !

م . ن »

وفى اليوم التالى وقف أمام باب الشقة « بجاردن ستى » شاب مهندَم معطرٌ ، رشق وردةً حمراءَ فى عُروَةِ سُترته ، وحمل طاقةً من الأزهار الفوّاحة معدّةً لغزْو القلوب .

وفتح الباب ... وظهرتْ على عتبته غادة رائعةُ الحسن فى منامة حريرية هفهافة ، فألقتْ على الشاب نظرة فاحصة من طرْفها

الكحيل ذى الأهداب المتراصة الطويلة ، ثم قالت :
حضرتك بلا رَيب م . ن صاحبُ البرقيات .
— أنا نفسى ! ...
— تريد طبعاً أن تعلمَ ردّى على هذه البرقيات وَفْق مَنطقك الحديث وملابسات العصر الحاضر ، حيث السرعةُ والتركيزُ فى الأقوال والأفعال من ألزم الواجبات ! ...
— لا فُضّ فوك .
— ها هو ذَا رَدّى ...
وارتفعت يدُ الحسناء ، وسرعان ماهبطت على صُدْغ الفتى ! ...
وإذا بفرقعة ترن متعالية ، فتتجاوبُ بها الحيطان ، تَتبعها فى الحال دَوِىّ باب يُقفل ! ...
وكان م . ن . حاد الذكاء ، على اطلاع واسع بخطط الحروب الحديثة ، فعلمَ أن الهجومَ الخاطف إذا لم يصادفه انتصارٌ حاسم انقلبَ إلى هزيمة فاصلة تتطلبُ التقهقر العاجلَ فى انتظام .
فأطلق ساقيه للريح - كما يقولون - وجعل يَقفزُ على الدرَج مَثنى وثلاث ورُباعَ ! ...

فهرس

أحدث مؤلفات « محمود تيمور »

ا ـ بالعربية :

ا ـ مجموعات قصصية :

١ — كل عام وأنتم بخير
٢ — مكتوب على الجبين
٣ — شفاه غليظة
٤ — شباب وغانيات
٥ — إحسان لله
٦ — فرعون الصغير
٧ — أبو الشوارب
٨ — أبو على الفنان
٩ — زامر الحي
١٠ — قلب غانية
١١ — ثائرون
١٢ — دنيا جديدة
١٣ — نبوت الخفير
١٤ — تمرحنا عجب

ب ـ قصص مطولة :

١ — كليوباترة فى خان الخليلى
٢ — سلوى فى مهب الريح
٣ — نداء المجهول
٤ — شمروخ
٥ — حلو ومر « تحت الطبع »

حـ ـ صور وخواطر :

١ — ملامح وغضون
٢ — النبي الإنسان
٣ — شفاء الروح
٤ — عطر ودخان

د ـ رحلات :

١ — أبو الهول يطير
٢ — شمس وليل

هـ ـ قصص تمثيلية :

١ — صقر قريش
٢ — سهاد أو اللحن التائه
٣ — المنقذة وحفلة شاى
٤ — المخبأ رقم ١٣
٥ — المزيفون
٦ — فداء
٧ — عوالى
٨ — أبو شوشة والموكب
٩ — قنابل
١٠ — حواء الخالدة
١١ — اليوم خمر
١٢ — ابن جلا
١٣ — أشطر من إبليس
١٤ — كذب فى كذب

و ـ دراسات لغوية وأدبية :

١ — مشكلات اللغة العربية
٢ — دراسات فى القصة والمسرح

ب — بالإنجليزية :

قصص من صميم الحياة المصرية **Tales from Egyptian Life**

ج — بالفرنسية :

عزرائيل القرية **1. Le Courtier de la Mort**

شفاه غليظة **2. La Belle Aux Lévres Charnues**

بنت الشيطان **3, La Fille de Diable**

كل عام وأنتم بخير **4. Bonne Fête**

زهرة المرقص **5. La Fleur du Cabaret**

نداء المجهول **6. L'Amour par dela l'inconnu**

غراميات سامى **7. Les Amour de Semi**

حلم سمارا **8 · Le Rieve de Samara**

حياة الأشباح **9. La Vie des Fantomes**

د — بالألمانية :

١ — مجموعة قصص نشرها المستشرق الألماني الدكتور « ويدمار »
٢ — مجموعة قصص نشرها الأديب [illegible] الهر « كالمر »

ه — بالروسية :

ثلاثة مجلدات ضخام نشرتها المستشرقة الروسية : السيدة « كلثوم عودة فاسيليفا » أستاذة الأدب العربى بجامعة موسكو .

وللمؤلف مجموعات بالقوقازية والعبرية والإيطالية والإسبانية والمجرية واليوجسلافية